مفهوم الدولة اليهودية

د. كمال غالي

تقوم الدولة على أركان ثلاثة : سكان يؤلفون البيئة الاجتماعية التي تنبثق عنها ، واقليم يحد سلطتها ، والسلطة التي تمارس ضمن حدود هذا الاقليم . ويقوم مفهوم الدولة المعاصرة على « السيادة الاقليمية » . فالسيادة تفترض ان تختص السلطة باقليم معين ، وخير سبيل لذلك ان ترسم حدود هذا الاقليم . ويطلق على اقليم الدولة « حدود الاختصاص » ، فكل من يعيش عليه يخضع لاختصاص السلطة القائمة . والاقليم هو الذي يحدد - من حيث المبدأ - جنسية المواطن وتبعيته للسلطة . ولا يؤخذ بمبدأ ولاء الاشخاص لتحديد السلطة التي يخضعون لها ، لما قد ينشأ عن ذلك من منافسات بين الدول لا تستقيم معها العلاقات الدولية . فالاقليم هو الاطار الطبيعي الذي يمارس الحكام فيه وظيفتهم ، ويمتنع عليهم ان يمارسوا اختصاصهم خارج حدود هذا الاقليم .

أما السلطة التي تمارس ضمن حدود الاقليم ، السلطة الآمرة ، فالمفروض ان تكون سلطة عليا متفردة لا تشاركها في اختصاصها سلطة اخرى ، ويحد الاقليم سلطتها فلا تمارسها خارج حدوده .

واذا انتقلنا الى تحليل مفهوم الدولة اليهودية ، ماذا نجد ؟

من حيث النشأة التاريخية ، تقوم دول العالم عادة على وجود اقليم معين تسكنه جماعة من الناس وتنبثق من بينهم سلطة سياسية . اما فيما يتعلق باسرائيل فيلاحظ انها نشأت باسلوب معاكس هوفريد في بابه : فقد تكونت السلطة السياسية أولا (المنظمة الصهيونية العالمية)،وتحت الحماية البريطانية (وعد بلفور والانتداب البريطاني) أمنت لها موطىء قدم في اقليم معين ، ثم قامت بالغزو البشري والتوطين جزئيا في هذا الاقليم (الهجرة اليهودية) ، وما ان توفرت ظروف معينة حتى اقتلعت هذه المجموعة البشرية الطارئة السكان الاصليين وتفردت في معظم انحاء الاقليم (حرب ١٩٤٨) .

ولسنا هنا في صدد مناقشة مشروعية هذا الاسلوب . غير أنه يهمنا من الناحية القانونية القاء الضوء على مدى انطباق المفهوم المعاصر للدولة على هـذا الكيان السياسي الجديد . او بعبارة اخرى، كشف ما اذا كان ثمة مفهوم جديد للدولة قد ظهر مع هذه النشأة الفريدة . وسنبحث وضع هذه الدولة من حيث الاركان المختلفة التي يقوم عليها المفهوم العام للدولة .

<u>اولا ـ الشعب</u> : تقوم النظرية الصهيونية على وجود أمة يهودية متميزة بالرغم من ان الحقائق العلمية كلها تؤكد ان ليس ثمة امة يهودية او عرق يهودي، بل دين يهودي انتشر بالتبشير ـ شأنه شأن الاديان الاخرى ـ في مختلف بقاع العالم . وهذا ما يفسر لنا التخبط الذي وقع فيه المفكرون الصهيونيون عندما

أرادوا ان يحددوا الروابط التي تقوم عليها الامة التي ينادون بها ، وكانوا جميعا يضطرون في النهاية الى الأخذ برابطة الدين (١) . فاليهود المنتشرون في جميع انحاء العالم لا يكونون وحدة عرقية متجانسة ، بل ينحدرون من اجناس متباينة . وليس لهم لغة مشتركة ، لأنهم يتكلمون لغات المجتمعات التي يعيشون فيها . وليس لهم تقاليد واعراف مشتركة تجمعهم ، فتقاليدهم هي تقاليد هذه المجتمعات. وليس لهم ماض مشترك ، فتاريخهم هو تاريخ مجتمعاتهم . ولئن ألح الصهيونيون على القول باسطورة القومية اليهودية ، فلأن حركتهم ظهرت في عصر القوميات ، وارادوا الافادة من هذا التيار الفكري السياسي لتحقيق مطامعهم ، بعد ان اصبح مسلما به ان كل امة تنزع الى الانتظام في اهاب دولة ، اي انها تطمح الى ان تقيم لنفسها تنظيما قانونيا يتفق وظروف حياتها ، وان هذا الطموح مشروع لأن الأمة هي الاساس الطبيعي للبناء الذي يجب ان تقوم الدولة عليه . (٢)

---

(١) « ان جميع اليهود يبعدون عن الانتماء الى الجنس اليهودي . فاليهود عبارة عن طائفة دينية اجتماعية انضم اليها في جميع العصور اشخاص من شتى الاجناس ، وهؤلاء المتهودون ظهروا في جميع الآفاق . فنهم الفلاشا ، سكان الحبشة . ومنهم الالمان ذوو السحنة الجرمانية ، ومنهم التامل — اليهود السود ، من الهند ، ومنهم الخزر ، والمفروض انهم من الجنس التركي » (الدكتور اوجين بيتار — الاجناس والتاريخ، صفحة ١٥٤).

ويقول هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية العالمية في كتابه « الدول اليهودية » : « اننا لا نتعرف على قوميتنا الا عن طريق عقيدة آبائنا ، لأننا تمثلنا منذ عهد بعيد لغات الامم المختلفة » (الطبعة الفرنسية ، باريس ، ١٩٢٦ صفحة ١٦٥) . كما يقول في مكان آخر « وان وحدتنا العرقية الخاصة هي فريدة حقا ، اذ لا نحس بانتمائنا الى عرق واحد الا عبر عقيدة آبائنا » (صفحة ٢١٢) .

(٢) يقول هرتزل : « اننا شعب واحد ... ففي المحنة نبقى متحدين ، وعندئذ نكتشف فجأة قوتنا . نعم ان لدينا القوة لتكوين دولة ، بل ودولة نموذجية . ان لدينا كل الوسائل البشرية والخبرات اللازمة لهذا الغرض » (صفحة ٨٧) .

ولو ان اليهود كانوا أمة لكانوا مستقرين بصورة دائمة على اقليم معين ، وعند ذاك يمكن ان يتحقق المبدأ القومي باقامة سلطة وطنية من بينهم، اما وانهم في الواقع لا يكونون أمة [١] ، بل ابناء دين ينتشرون في جميع انحاء العالم ، فان هذه الحقيقة لا بد ان تطبع دولتهم بطابع خاص . والواقع اننا نجد ان دولة اسرائيل ليست هدفا بحد ذاتها ، فهي كما يقول بن غوريون في ١٣ آب (اغسطس) ١٩٤٨ : « انني اعتبر المقدمة الكبرى الرئيسية في جوهر تفكيرنا باجمعه ، لا بل حركتنا بكليتها وسياستنا، ما يلي : ان الدولة ليست هدفا في حد ذاتها ، بل هي وسيلة الى هدف ، والهدف هو الصهيونية . » [٢]

والصهيونية تقوم على اساس الحصول على ما يسمى « ارض اسرائيل » و « اعادة الشعب اليهودي » الى ارضه التاريخية ، لأن الحياة في المنفى (أي خارج فلسطين) مخالفة للدين اليهودي والحياة القومية الطبيعية للشعب اليهودي . ويعبر عن ذلك بن غوريون بقوله : « ان الامة اليهودية في اسرائيل ، وهي عمادنا وقوامنا الوحيد الاكيد ، **لا تزال وعداً وليست تحقيقاً** . ان تسعة اعشار يهود العالم بدون وطن . وهناك العديد من يهود الداخل لا يزالون في الطور المعقد لعملية صيرورتهم الى شعب ، يعملون على خلق وطنهم [٣] . »

فدولة اسرائيل ليست — كالدول الأخرى — دولة ساكنة ، بل هي دولة

---

(١) ويعترف بذلك ضمنا بن غوريون حين يقول في خطاب القاه امام الكنيست في ١٩٥١/١/٢ : « ان العديد من يهود الداخل (داخل اسرائيل) لا يزالون في الطور المعقد لعملية صيرورتهم الى شعب ، يعملون على خلق وطنهم . »

(٢) بعث اسرائيل ومصيرها ، مشار اليه في « المطامع الصهيونية التوسعية » عبد الوهاب كيالي صفحة ٣٥ ، بيروت ، ١٩٦٦ .

(٣) المطامع الصهيونية التوسعية ، صفحة ٣٥

ديناميكية حركية . يقول ناحوم جولدمان في ذكرى مرور سبعين عاماً على عقد المؤتمر الصهيوني الأول : « ان الدولة ستفنى لو سمح لها بأن تعمل كل ماتشاء في سبيل مصالحها ، دون ان يكون وراءها حركة ايديولوجية تمدها بأسباب البقاء . لذا فالصهيونية أصل واسرائيل فرع . ولكن في سبيل تحقيق اهداف الصهيونية، كان لا بد من ايجاد مركز منظم قوي عسكرياً ليكون نقطة اشعاع لكل يهود العالم ، فظهرت فكرة ايجاد هذا المركز في شكل دولة[1] » .

وبعبارة أخرى دولة اسرائيل ليست الا مرحلة ، والهدف هو تجميع « المنفيين » في « اسرائيل » . وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تضمن ميثاق اعلان الاستقلال أن « دولة اسرائيل سوف تفتح ابوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين .. » وأصدرت اسرائيل عام ١٩٥٠ ما يسمى « قانون العودة » متضمناً حق كل يهودي بالمجيء الى اسرائيل بصفة مهاجر عائد . ويعلق بن غوريون على هذا القانون بقوله : « ان الخصائص التي تميز اسرائيل عن غيرها من الدول هو أن قانون العودة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجنسية . فالمادة الاولى من اعلان الاستقلال ترسي القواعد الرئيسية للدولة ، التي منها : ان دولة اسرائيل مفتوحة للهجرة اليهودية وتجميع المنفيين. وتتضمن المادة نداء الى جميع اليهود المشردين ان يتجمعوا حول الاسرائيليين بطريق الهجرة . فدولة اسرائيل جديدة ليست غاية في حد ذاتها ، ولكنها خطوة جديرة بالاعتبار على المدى الطويل . فقانون العودة من أهم القوانين الرئيسية للدولة ، لأن الدولة لا تمنح حق الاقامة في اسرائيل ، وانما تفسير هذا ، انه حق طبيعي له ، مستمد من كونه يهودياً . وهذا الحق سابق لاقامة الدولة نفسها . ويستمد هذا القانون وجوده من

(١) الدكتور يعقوب الخوري ، مرتز اليهود في البلاد العربية (مخطوط) .

الرابطة التاريخية التي لم تنقطع بين الشعب اليهودي ووطنه . ولا يعتبر هذا القانون مجرد قانون هجرة كما هو الحال في معظم القوانين في البلاد الأخرى ، وانما هو السند الدستوري الذي بمقتضاه تكونت دولة اسرائيل . فكل يهودي ، اينما كان محل إقامته ، يتمتع بحق تاريخي في العودة الى اسرائيل والاقامة فيها . وقانون الجنسية يكمل قانون العودة ، اذ ينص على أن كل يهودي يصبح مواطناً اسرائيلياً بمجرد عودته ، دون حاجة الى توافر شروط أخرى »[١]

واذا ربطنا هذا القانون ، وما تعتبره الصهيونيـــة من أن واجب كل يهودي ان يعود ، وألا يتنكر لدينه ، على حـــد تعبير بن غوريون، نفهم معنى تصريحات كالتي تقول: « لقد تم تنظيم الشعب اليهودي لخلق الدولة اليهودية ، لكي يتسنى تنظيم الدولة اليهودية بدورها للحفاظ على الشعب اليهودي وحمايته . هذه هي الفلسفة الصهيونية الكلاسيكية »[٢] .

وقول ناحوم غولدمان: «ان اسرائيل ليست كسائر الدول، فهي باعتبارها مركزاً للعالم اليهودي ، يحق لجميع اليهود أن يعبروا عن تضامنهم ومشاركتهم فيها بالاسهام في شؤونها ، وانه لا ينكر على شعب اسرائيل نفس الحق في شؤون الدياسبورا – يهود المنفى – »[٣] .

فاليهودي ، اينما كان ، مواطن بالقوة (محتمل) في دولة اسرائيل .

---

(١) « شعب اسرائيـــل ودولتها » ، نقلاً عن الدكتور يعقوب الخوري ، المخطوط المنوه عنه .

(٢) تصريح الدكتور ماكس نوسباوم ، الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية الاميركية.

(٣) مشار اليه في كتاب موشي منهاحم ، تقهقر اليهودية في عصرنا ، نيويورك ، ١٩٦٥ صفحة ٤٠٣

ولكن يهود العالم ليسوا أفراداً لا يخضعون لأي تنظيم سياسي . فهم ، حيثما كانوا ، مواطنون في دولة قائمة ، يحملون جنسيتها ، ومفروض فيهم أن ينحصر ولاؤهم لها . والصهيونية بعملها على اعتبارهم مواطنين اسرائيليين محتملين، وحثهم على الهجرة ليصبحوا مواطنين فعليين ، انما تخلق مشكلة لا تستقيم مع مفهوم القانون العام المعاصر ، هي مشكلة تعدد الجنسية ، أو على الأقل الولاء المزدوج.

ويعترف الزعماء الصهيونيون صراحة بذلك ، ولا يخفون مطالبتهم بازدواج الولاء ، ويحاولون ان يتلمسوا له سنداً قانونياً . فاحد كبار رجال القانون الصهيونيين ، فاينبرج، يقول : « ان الحق في الوطن القومي قد منح للشعب اليهودي في مجموعه ، وليس لأي جزء منه . فهذا الحق لم يمنح للصهيونيين او لليهود المستقرين في فلسطين أو الذين سيستقرون فيها ، بل منح لجميع اليهود اينما كانوا »[1] . ويطالب بن غوريون يهود العالم بالولاء المزدوج ، للدولة التي يعيشون فيها وللدولة إسرائيل ، وهي أهم في نظره : « حيث انه لا يمكن للمرء ان يكون صهيونياً مالم يؤمن بسيادة القومية الصهيونية »[2] . وفي تصريحات متكررة لناحوم غولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية سابقاً ، يناشد يهود امريكا والعالم أن يجمعوا شجاعتهم ويعلنوا صراحة أنهم يدينون بولاء مزدوج، الواحد للأرض التي يعيشون بها، والآخر لإسرائيل : « على اليهود ان يعيشوا ليس فقط كوطنيين في بلاد اقامتهم، بل أيضاً كوطنيين في اسرائيل »[3] .

---

(١) مشار اليه في مؤلف موشي مناحيم سالف الذكر ، صفحة ٤١٧ .

(٢) تايلور ، كيف قامت اسرائيل ، ترجمة علي محمد علي ، القاهرة ١٩٦٥ ، صفحة ١٥٣ .

(٣) موشي مناحيم ، المرجع السابق صفحة ٤٠٠ .

وقبيل حرب حزيران ١٩٦٧ أطلق كلود لانزمان الفرنسي صرخته المشهورة : « ان أي مساس باسرائيل يتركني عاريا مجرداً من السلاح » ، ويقول روتشيلد مؤخراً في نوفمبر ١٩٦٧ : « ان الولاء المزدوج ليس أمراً متناقضاً »[١]. بل أقدم دانيال ماير (والعجب أنه رئيس رابطة حقوق الانسان) في تعليقه على الموقف الذي اتخذته فرنسا بشجب عدوان إسرائيل في حزيران ١٩٦٧ على القول : « انني أشعر بالخجل لكوني فرنسياً »[٢]. ففي كل مكان يعمل الصهيونيون بالاشتراك مع حكومة إسرائيل على نشر « الوعي القومي » بين اليهود ، وعلى دفعهم الى اعتبار دولة إسرائيل هي السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية للشعب اليهودي كله . وفي عام ١٩٥٨ صرح والتر ايتان الأمين العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية : « من المألوف في وزارة خارجيتنا اعتبار أي مبعوث فوق العادة ووزير مفوض لاسرائيل ... وزيراً مفوضا لدى الدولة المعتمد لديها ... ومبعوثا فوق العادة لدى اليهود فيها »[٣]. وقد أقر المؤتمر السادس والعشرون للمنظمة الصهيونية العالمية الذي عقد قبل حرب حزيران ١٩٦٧ بعام ونصف فقط قراراً يتضمن ان يهود العالم ملزمون بتسخير جهودهم لنصرة إسرائيل أولا ، ويأتي ارتباطهم بالدولة التي ينتسبون اليها في المقام الثاني[٤] . ولئن كان يهود أمريكا وأوربا الغربية مازالون يرفضون الهجرة الى اسرائيل ، إلا أنه من الثابت ان ولاء الكثيرين منهم أصبح مزدوجاً ، وكثيرون منهم أصبحوا يعتبرون ان اسرائيل هي وطنهم الآخر[٥] .

---

(١) ديرون ، ضد اسرائيل ، صفحة ١٠٢ .

(٢) ديرون ، المرجع السابق ، صفحة ٣٤ .

(٣) موشي مناحيم ، صفحة ٣٩٦

(٤) مراجعة صهيون ، يعقوب بتشوفسكي ، نيويورك ١٩٦٦ ، صفحة ٨٩

(٥) جريدة الاهرام ، القاهرة ١٩٦٩/٣/٧

ويتجلى هذا الولاء لإسرائيل في خمسة مظاهر أساسية تعتبر كلها من مظاهر المواطنة في الدولة المعاصرة :

١ - تأييد الصهيوني لمواقف دولة اسرائيل ولو كانت مناقضة لسياسة الدولة التي يحمل جنسيتها ، كما هو ظاهر في فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا ودول عدم الانحياز بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . ويقول في ذلك بن غوريون : « يجب على يهود العالم في جميع أنحاء العالم أن يقدموا العون لدولة اسرائيل ، بصرف النظر عن احتمال ان الحكومة التي يدينون لها بالولاء ترغب في ذلك أم لا . »(١) .

٢ - تقديم الضريبة لإسرائيل : ليس من يجهل المعونات المالية الضخمة التي تتلقاها اسرائيل سنوياً من جميع صهيوني العالم . ولكن هذه (التبرعات) أصبحت في واقع الأمر ضريبة . فالبارون إدمون روتشيلد وجه في ٦ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ رسالة الى جميع يهود فرنسا على ورقة تحمل عنوان « اللجنة القومية للتنسيق بين المنظمات اليهودية في فرنسا » ، يفرض عليهم دفع ضريبة الى إسرائيل ، دولة أجنبية ، وفقاً لقوانين ليست قوانين فرنسا ، يقول فيها :

« لقد كان النصر العسكري (حرب ١٩٦٧) انتصاراً للشعب اليهودي المعزول في عالم معاد أو لامبال ... هذا النصر يجب تثبيته ، ولا يمكن ان يتحقق ذلك إلا بالشعب اليهودي وحده ، أي كل واحد منا

... ما من شك انكم اقدمتم من قبل على تقديم المساهمة المالية لاسرائيل . ولكن هل اعطيتم ما يكفي ؟ ان المساهمة المطلوبة من كل واحد هنا لا تشكل عملا خيريا ، انها ضريبة ، انها ثمن كرامتنا و كبريائنا وتضامننا ... هذه المساهمة

---

(١) تاياور ، صفحة ١٥٢

يجب ان تتناسب مع مقدرة اليهودي .. اما اجر شهر أو جزءاً هاماً من الدخول السنوية ، او حتى جزء من رأسماله . ان الشرع اليهودي يفرض على كل واحد ان يدفع مالا يقل عن ١٠ بالمئة من دخوله »(١) . وقد لبى النداء ٩٤٠٠٠ فرنسي من أصل ٥٥٠ الف .

وليس اجتماع اصحاب الملايين اليهود في القدس عام ١٩٦٨ لدعم اقتصاد اسرائيل ، الا مظهر من مظاهر المساهمة الحالية .

٣ - ويشارك اليهودي الصهيوني ، وان لم يكن اسرائيلي الجنسية ، في الحياة السياسية لدولة اسرائيل عندما يكون فيها . ومن الثابت ان ناحوم غولدمان - وهو مواطن امريكي - اشترك في المعركة الانتخابية في انتخابات عام ١٩٦١ رغم ان القانون الامريكي يقضي باسقاط الجنسية عن المواطن الامريكي الذي يشترك في انتخابات دولة اجنبية ، ويقول ناحوم غولدمان في ذلك : « ان اسرائيل ليست كسائر الدول . فهي باعتبارها مركزاً للعالم اليهودي ، يحق لجميع اليهود ان يعبروا عن تضامنهم ومشاركتهم فيها بالاسهام في شؤونها » .(٢)

٤ - والى جانب التأييد الادبي والضريبة فان كثيراً من صهيوني العالم يشاركون في حروب اسرائيل فعلياً ، تحت اسم متطوعين ، وبعبارة اخرى فانهم ينهضون بواجب « الخدمة العسكرية » الذي هو المظهر الاسمى للارتباط

(١) دييرون ، صفحة ٩٥ - ٩٦

(٢) فيما يتعلق بحرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٥٦ راجع بنيامين كاجان ، المعركة السرية من اجل اسرائيل ، صفحة ١٥٨ . وذكرت اذاعة اسرائيل في الاحتفالات التي اقيمت لمناسبة مرور عشرين عاماً على قيام دولة اسرائيل ان عدد الذين اشتركوا (المتطوعين) في حرب ١٩٤٨ هو سبعة آلاف مقاتل .

بين الدولة والمواطنين . وقـــد ترك بعض العسكريين المحترفين او الاحتياط جيوش بلادهم للالتحاق بجيش اسرائيل اثناء المعارك (١) .

٥ – والهجرة الى اسرائيل والاستقرار فيها هي الواجب الاخير للصهيوني.

ويحدد بن غوريون واجبات الصهيوني بقوله : « ان تقديم المساعدات غير المشروطـــة لدولة اسرائيل والتعليم العبري الاجباري وتشجيع حركة الهجرة واستعمار فلسطين ، في رأيي ، هي الشروط الثلاثة الأساسية لوجود الحركة الصهيونية . وبتحقيق هذه الشروط يصبح الشخص صهيونياً .»(٢) وبهـذه الهجرة يتخلى اليهودي غـــير الاسرائيلي عن كل مظاهر ولائه للدولة التي يحمل جنسيتها ليصبح مواطناً اسرائيلياً .

الاقليم : لكل دولة في العالم اقليم تختص به ، ولها حدود معترف بها . أما اسرائيل فالدولة الوحيدة في العالم بـــلا حدود . لقد قامت دولة اسرائيل استناداً الى قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ . ولكنها لم تتقيد بالحدود التي رسمت لها في القرار ، واحتلت بالقوة مساحات اضافية تعادل

---

(١) ليس معنى هذا ان كل يهود العالم يقفون هذا الموقف ، ولكنه على كل حال موقف الصهيونيين اطلاقاً . وقد ارتفعت اصوات يهودية حرة في كل مكان تهاجـم الصهيونية وما تنطوي عليه من ولاء مزدوج وتأييد اعمى للنزعة العدوانية الاسرائيلية . ففيما يتعلق بالولاء المزدوج كتب ريمون آرون يقول : « لكل انسان ان يحب وطنه ويعبد إلهه ، كما انه يستطيع الانتماء الى طائفة دينية والى وحدة سياسية . ولكن ما من أحد يجرؤ على المطالبة بحق المواطنية المزدوجة ، لأن جوهر المواطنية هو اطاعة قوانين الدولة ، وقبل كل شيء الوفاء بالالتزامات العسكرية. باستطاعتي ان اكون فرنسياً يهودي المذهب، ولا يمكنني ان اكون فرنسياً واسرائيليا في آن واحد معاً » مشار اليه في « الدولة والدين » صفحة ٤ .

(٢) تايلور ، صفحة ١٥٣ .

٣٠٪ أكثر من المقرر لها [١] وشردت السكان العرب بالعنف والارهاب، وانتهت حرب عام ١٩٤٨ الى عقد اتفاقيات هدنة ، وهـذه الاتفاقات لاترسم حدوداً سياسية دولية . فهي تنص صراحة ، في أكثر من نص « انها لاتمس بجال من الأحوال حقوق وادعاءات ومراكز كل من الطرفين فيما يتعلق بالتسوية السلمية النهائية للقضية الفلسطينية ، وان أحكامها إنما تمليها حصراً الاعتبارات العسكرية ، لا السياسية ، وأنها لايمكن تفسيرها بأن لهـا علاقة ما بالتسويات النهائية ذات الطابع الاقليمي ».

فاسرائيل حتى الآن لاحدود لها . فميثاق الأمم المتحدة يحرم اللجوء الى القوة ، وبالتالي فان الحرب ليست وسيلة مشروعة للتوسع . كما أن الدول العربية لم تعترف بحدود إسرائيل ، والشعب الفلسطيني لايعترف بقرار التقسيم أصلاً لأنه مخالف لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها ، وإسرائيل نفسها لاتعترف بخطوط الهدنة حدوداً لها . وتصريحات قادة إسرائيل وزعمائها لاتحصى في هـذا المجال . ففي مقدمته للتقويم السنوي الرسمي لحكومة إسرائيل لعام ١٩٥٠ — ١٩٥١ يقول بن غوريون : « نحن لم نرث بلاداً واسعة ، ولكننا وصلنا بعـد مجهود سبعين سنة ،أولى مراحل استقلالنا في قسم من بلادنا الصغيرة [٢] . وفي عام ١٩٥٢ يقـول بن غوريون : « كل دولة تتكون من أرض وشعب . إن إسرائيل لا تشكل شذوذاً لهذه القاعدة . ولكنها دولة ليست مطابقة لأرضها أو لشعبها . فحين قامت الدولة لم تكن تضم سوى ٦٪ من مجموع الشعب

---

(١) بن غوريون ، اسرائيل أو سنوات التحدي ، الطبعة الفرنسية ، ١٩٦٤ ، صفحة ٦١ .

(٢) المطامع الصهيونية التوسعية ، صفحة ١٢ .

اليهودي ، وعلينا أن نقول : إن الدولة قامت فوق جزء من أرض إسرائيل »[1].
وفي التقويم السنوي لعام ١٩٥٥ يقول بن غوريون : « إن خلق الدولة الجديدة لاينتقص بأي حال من الأحوال من إطار الحدود التاريخية لأرض إسرائيل »[2].

ما هي الحدود التاريخية لأرض إسرائيل ؟ إذا رجعنا الى هرتزل نجده يكتب في مذكراته السرية « من النيل الى الفرات »[3].

وفي عام ١٩٣٠ يتحدث كادمي كوهين عن هذه الحدود فيقول : « إن أهم المناطق التي تدخل في مجال نشاط الصهيونية هي فلسطين الانجليزية (أي تحت الانتداب البريطاني) بما فيها شرقي الأردن ، وجزء من سورية (لا تدخل فيه منطقة دمشق ولا المناطق الداخلية ومرافئها وأسواقها الداخلية) وجزء من المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات التي ترتبط بفلسطين الانجليزية وشرقي الأردن عن طريق جبـــل الشيخ ، وحوران والجولان ، والمجرى الأعلى لنهر الأردن ، وكل المنطقة الممتدة الى البحر الأبيض المتوسط الواقعة بين نهر القاسمية ورأس الناقورة . وفي الجنوب يتكامل هـــذا الاقليم بالمنطقة الممتدة من وادي العريش الى شبه جزيرة سينا ، بما فيه شبه الجزيرة هذه ، ومرفأ العقبة ومنطقته الداخلية ، وجزء من بلاد مدين المعروفة بثرواتها المعدنية[4] .

وهكذا نجد أن الحدود المقترحة تطابق أحلام هرتزل ، ويتكرر ذلك على لسان الحاخام يهودا ميمون وزير الأديان في الكلمة الرسمية التي ألقاها باسم الحكومة الاسرائيلية في مؤتمر (الكيرن كيت) المنعقد في القدس في ١٩٥١/٨/٨ :

(١) و (٢) المرجع السابق ، صفحة ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق ، صفحة ٦١ .
(٤) كادمي كوهين ، دولة اسرائيل ، باريس ، ١٩٣٠ ، صفحة ٩٥ .

« ما تزال أمام الكيبوت كيث أعمال عظيمة ، إن دولة إسرائيل كلها أمامها ، وإن حدود تلك الدولة هي من الفرات الى النيل »[1].

وهذا مايفسر لنا تصريحات المسؤولين الاسرائيليين عندما احتلوا سيناء عام ١٩٥٦ ، وحديثهم عن « الأرض المحررة » . وهو مايفسر لنا أيضاً تصريحات المسؤولين الاسرائيليين المتكررة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ عن « إسرائيل الكبرى » ، وقيام كتلة تطالب بالاحتفاظ بالأراضي المحتلة .

والخلاصة : إن إسرائيل دولة لا حدود لها يعترف بها جيرانها ، وهي لاتعترف بحدودها الفعلية . فحدودها هي أقصى ماتستطيع الوصول اليه وتقدر على المحافظة عليه بقوة السلاح . وتحدد وثيقة سرية لهيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلي الحد الأدنى لمطامع إسرائيل الاقليمية على النحو التالي[2]:

« إن اغتصاب المنطقة التي تحدها قناة السويس ونهر الليطاني والخليج الفارسي ذو أهمية بالغة لنا . والسيطرة على هذه المنطقة ممكنة بشرط أن يطرد منها ١,٦٠٠,٠٠٠ من البشر .

وتقسم هذه المنطقة حسب أهميتها الى المجموعات التالية :

١ – غربي الأردن ، غزة ، أرض فقتالي (في لبنان) ، الجولان .

٢ – شبه جزيرة سيناء ، مضائق تيران ، العقبة ، جبال موآب ، سير .

---

(١) المطامع الصهيونية التوسعية ، صفحة ١٠١ .

(٢) نشرت هذه الوثيقة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٧ بمدينة بومباي بواسطة الصحفي الهندي ر . ك . كرانجيا بعنوان « خنجر اسرائيل » . وقد أيدت دائرة نشر الكتب السياسية التابعة للدولة في موسكو صحة هذه الوثيقة في كتابها « دولة اسرائيل ، وضعها وسياستها » تأليف إيفانوف وزشانيز ، المنشور عام ١٩٥٨ ، كما ان تطورات حرب حزيران ١٩٦٧ وما تلاها تؤكد صحتها .

٣ ـ منطقة العربية السعودية الخازنة للزيت .

٤ ـ أرض ماكير (حوران ، أرغون ، الجولان) .

ان الحد الادنى لمطامعنا يشمل المجموعتين الاولى والثانية .

٣ ـ السلطة : لم تنته مهمة المنظمة الصهيونية العالمية بقيام دولة اسرائيل . ويتحدث بن غوريون عن العلاقات المتبادلة المتكاملة بين الدولة والمنظمة الصهيونية فيقول : « ولكن ميزة اسرائيل هذه لهي مصدر تقييد لها ايضا ، فسيادة الدولة محصورة ضمن حدودها وتطبق فقط على مواطنيها ، على حين لا يزال ٨٠٪ من الشعب اليهودي يعيشون ـ ولا احد يدري الى متى ـ خارج حدودها . ان دولة اسرائيل لا تستطيع ان تتدخل في حياة اليهود في الخارج او توجيهم او تفرض عليهم مطالب ما . انها الدولة فريدة ، على أية حال ، في ظهورها ومهمتها ، وهي مرغمة على التصرف كأية دولة اخرى على حين ان قدرتها في خارج حدودها مقيدة . ان المنظمة الصهيونية العالمية ، التي شيدت بالفعالية والمشاركة الطوعيتين لقادرة على تحقيق ما هو فوق طاقة الدولة وكفاءتها . وهـــذه هي ميزة الصهيونية العالمية غير الموجودة في دولة اسرائيل . لذلك لم تعتبر المنظمة الصهيونية العالمية عديمة النفع حين قامت اسرائيل ، بل بالعكس ، زادت زيادة كبرى تبعاتها ومهامها . ان الدولة والحركة الصهيونية تتم الواحدة منها الاخرى وتحتاج الواحدة منها الى الاخرى ، وبجهدهما المشترك تستطيعان ، بل ويجب ان تستطيعا ، تنشيط الشعب اليهودي ودفعه كي يحقق مثال خلاصه »[١]

وقد عقد اتفاق بين حكومة اسرائيل والمنظمة العالمية الصهيونية ، أقره

(١) جون دبفز ، السلام المراوغ ، صفحة ٩٤

الكنيست عام ١٩٥٢. اخذت المنظمة الصهيونية على عاتقها دفع عجلة الهجرة وادارة مشاريع الاستيعاب والاستيطان في الدولة. وتنص المادة ٥ من هذا القانون: « ان رسالة جمع شتات المنفيين، وهي المهمة المركزية لدولة اسرائيل والحركة الصهيونية في ايامنا، تتطلب جهودا متواصلة من الشعب اليهودي في المنفى. وبالتالي فان دولة اسرائيل تتوقع تعاون جميع الجهود، افرادا وجماعات، في بناء الدولة وتقديم العون في هجرة الشعب اليها، وتعتبر وحدة جميع فئات اليهود ضرورية لهذا الغرض ».

وتبدو أهمية المنظمة الصهيونية في نظر الحكومة الاسرائيلية في ان رئيس اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية ورئيس مجلسها العام يمنحان في الاحتفالات الرسمية مقاما يلي اعضاء الحكومة، كما ان اعضاء اللجنة التنفيذية يتساوون في المكانة واعضاء الكنيست. ويعرف كلارنس كولمان، رئيس المجلس الامريكي لليهودية – وهو مجلس صهيوني – العلاقة بين اسرائيل والمنظمة الصهيونية بقوله:

« ان القومية اليهودية حركة ايديولوجية ليست خيرية، وان كانت تتغذى من النزعة الخيرية. وهي ليست دينية وان كانت تستخدم المؤسسات الدينية لأغراض سياسية، تسمي نفسها باسماء مختلفة في اوقات متباينة، وان كانت على الدوام **حركة سياسية قومية تعمل عبر دولة ذات سيادة – اسرائيل – وذراعها شبه الحكومي، الوكالة اليهودية – المنظمة الصهيونية** ..»[1]

وصرح ليفي اشكول، وكان رئيساً للوزراء: « ان حكومة اسرائيل ستقدم، في حملة الحركة الصهيونية الجديدة للسيطرة على الجاليات في الدياسبورا

---

(١) موشي مناحيم، صفحة ٣٩٢

الحرة كل تأييد أدبي وسياسي . واذا حـــدث ان الحركة والشعب اليهودي لم يستطيعا تحمل العبء المادي وحدهما ، فان حكومة اسرائيل ستمد ايضاً يد المساعدة ، اذا طلب اليها ذلك ، في حدود قدرتها [١] . »

وقد امكن لهذا الكيان الاسرائيلي ـ الصهيوني ان يسيطر على اغلبيـة الجاليات اليهودية في العالم[٢] .

ولديه أجهزة دقيقة التنظيم . فستة ملايين من اليهود الأمريكيين يحتويهم ويسيطر عليهم جهاز ضخم يتألف من ١٠٠ ألف موظف يضم الربانيين والمعلمين والقائمين بالخدمات الاجتماعية والادارية . وكثيرا ماتتجاوز رواتب القادة منهم ، الذين يحتلون المناصب العليا ، راتب نائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة [٣] . كما تقوم بين يهود الولايات المتحدة الاميركية احزاب صهيونية مقـابلة للأحزاب السياسية الموجودة في اسرائيل [٤] . وهي تتصدى للتشهير وتحطيم كل من يقف في وجهها سواء أكان يهودياً أم لا . والمنظمات الصهيونية هي التي تنظم حملات التأييد السياسي لإسرائيل أو التشهير بأعدائهـــا وتنظيم جباية (الضرائب المالية) و (الخدمة العسكرية) . ونجحت الى حد بعيد في تحقيق الشعار الذي نادى به هرتزل : « السيطرة على الجاليات اليهودية » . وقد يتبادر الى الذهن عندما قلنا ان مهمة المنظمة الأساسية هي تنظيم الهجرة الى إسرائيل بأن هذه المهمة تتم بشكل طوعي ، والحقيقة انها تنظم بدقة من قبل المنظمة وحكومة ، وتحدد مواعيدها والسياق السياسي الذي تتم فيه .

---

(١) المرجع السابق ، صفحة ٣٩٧

(٢) بتشوفسكي ، صفحة ٩١ ومناحيم ، صفحة ٣٩٤

(٣) موشي مناحيم ، ص٣٩٤

(٤) بتشوفسكي ، صفحة ٦٢

لقد حاول حكام اسرائيل ان يتهموا الحكومات العربية بأنها اضطهدت اليهود المقيمين فيها واضطرتهم الى الهجرة، وطالبت بحل قضية اللاجئين الفلسطينيين على أساس نوع من التبادل ، بتوطينهم في البلاد العربية ، مع ان هدف إسرائيل من ذلك تصفية قضية فلسطين ، ومن المعروف ان عرب فلسطين شردوا من ديارهم ووطنهم بالعنف والإرهاب ، أما اليهود في البلاد العربية فقد قامت المنظمة الصهيونية وحكومة اسرائيل بتهجيرهم ، دون أن يكون الاضطهاد المزعوم سبباً في الهجرة .

ويعترف ضمناً بذلك بن غوريون نفسه ، إذ يقول : « ما كادت القوافل الأخيرة من مهاجري بولونيا تصل ، حتى كانت آلاف من المهاجرين تغادر رومانيا ، وفيما كانت هجرة الرومانيين ماتزال مستمرة ، بدأت عمليــة بابل ، أعني بذلك الهجرة من العراق . وكانت هذه العملية قد بدأت في يونيو ١٩٥٠ ، غير ان معدلها لم يتسارع إلا في عام ١٩٥١ »[١] ، ويقول في موضع آخر : « وأصبح ممكناً الآن الاهتمام بمشاريع جديدة للهجرة »[٢] . ويؤكد الاستاذ بتشوفسكي ان الهجرة اليهودية موجهة ، إذ يقول : « من الثابت ان هجرة يهود العراق كانت نتيجة لنشاط صهيوني مركز داخل العراق »[٣] .

وللوصول الى اهداف الصهيونية في ضمان ولاء يهود العـــالم ، وتحقيق

---

(١) بن غوريون . اسرائيل او سنوات التحدي ، ص ٧٠-٧١

(٢) المرجع السابق ص ٧٦

(٣) بتشوفسكي ، صفحة ٥٨ ، راجع فيما يتعلق بالنشاط الصهيوني في مصر وبصورة خاصة في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، مجلة المصور القاهرية ، فبراير ١٩٦٩ .

استمرار العون المادي ، والهجرة اليهودية الى اسرائيل تقف المنظمات الصهيونية واسرائيل . بشدة في وجه اندماج اليهود في المجتمعات التي يعيشون فيها . وهم في سعيهم هذا لا يتورعون عن وصف المساواة او الحرية التي يتمتع بها اليهود بانها اضطهاد لهم ، ففي المؤتمر اليهودي العالمي المنعقد في بروكسل (٣١/٧ - ٨/٩/١٩٥٦) ، قال ناحوم جولدمان فيما يتعلق بالاندماج : « ان الاضطهاد الذي يلقاه اليهود ليس قاصراً على الاتحاد السوفياتي . بل ان هناك بلاداً اخرى عريقة في الديموقراطية تمنح اليهود فيها حقوقاً مساوية لغيرهم من المواطنين ، ولكنها تطلب منهم مقابل ذلك التخلي عن شخصيتهم المميزة كيهود . ان كثيراً من اليهود هناك يخافون أن يصروا على شخصيتهم كيهود خشية فقدان هذه الحقوق التي اكتسبوها .. وان الخطر يكمن في أن عملية اندماج اليهود لا تقتصر على الفرد اليهودي حسب ، بل تنسحب ايضاً على الشكل الجماعي لحياتنا ، وعلى شخصيتنا ككيان جماعي مميز »[1] — وهو يقصد بذلك الولايات المتحدة الامريكية — ومن المعلوم ان الاتحاد السوفياتي يمنح اليهود حقوقاً متساوية ولكنه يكافح الصهيونية باعتبارها حركة رجعيـــة وتنطوي على ولاء مزدوج . أما الولايات المتحدة فمركز اليهود الممتاز فيها معروف ايضاً . المهم في نظر الصهيونية محاربة اندماج اليهود لتبقى شخصيتهم متميزة ويضمن ولاؤهم لاسرائيل ، وبذلك تبقى امكانيات الهجرة قائمة . ويؤكد ذلك مايقوله بن غوريون « لم تكن الصهيونية مجرد نظرية شاملة أو مفهوماً فلسفياً أو دينياً مستقلاً عن الزمان والمكان والظروف

---

(١) هاني الهندي ومحمد ابراهيم ، اسرائيل ، فكرة ، حركة ، دولة . ١٩٥٨ ، ص ٣٦ .

بل كانت في الواقع فلسفة يهودية هي في جوهرها ، نضال ضد الاندماج[1] » . وتلجأ الصهيونية الى كل الوسائل لبلوغ هدفها . وفي هذا يقول هرتزل : « إذا لم يكن هناك ضغط واضطهاد ضد اليهود فيجب أن نخلقها لكي نقوي الصهيونية ونجعل اليهود يتحركون لتحقيق أهداف الصهيونية »[2] .

وهكذا تبدو لنا دولة إسرائيل كياناً سياسياً فريداً ، فدولة إسرائيل تبدو وكأنها صورة مكررة عن الدول الأعضاء في المجتمع الدولي ، ولكن ما أن ننظر اليها من زاوية المنظمة الصهيونية العالمية - التي هي جزء لايتجزأ منها كما رأينا - حتى تختلف الصورة كلياً . إذ تبدو المنظمة الصهيونية العالمية وإسرائيل ككيان موحـــد ، وإن تجلى في شكلين مختلفين ، يطلق عليه ديفز اسم (الكوندومنيون الاسرائيلي - الصهيوني) ، لعدم وجود اصطلاح أفضل ، إلا أن هذا الاسم لا يفي بالغرض في نظرنا ، لأن الكوندومنيون يتوفر في حال ثنائية السلطة ، وهنا الثنائية وهمية وشكلية . ولعل أقرب الى الواقع أن نصف هذه السلطة - منظوراً اليها من خلال كيانها الموحد - ، وعند ذاك نجد أن دولة اسرائيل - الصهيونية تقوم ، لا على مبدأ السيادة الاقليمية - وهو أساس القانون العام المعاصر والقانون الدولي العـــام - بل على أساس « الولاء الديني » ، أي الولاء الشخصي . وتشكل بذلك نوعاً من الحكومة الصهيونية العالميـــة التي

---

(١) هاني الهندي ومحمـــد ابراهيم ، اسرائيل ، فكرة ، حركة ، دولة ١٩٥٨ ص ٣٦ .

(٢) اسعد عبد الرحمن ، المساعدات الامريكية والالمانية الغربية لاسرائيـــل ، بيروت ، ١٩٦٦ صفحة ٥٤ .

تتجاوز سلطاتها حدود اسرائيل الاقليمية لتشمل كل صهيوني العالم ، أين كانوا ، من فوق حدود الدول ، ومن فوق سياداتها الاقليمية .

ومما يدعو الى الدهشة حقاً أن اسرائيل حققت خطوات محسوسة في تحقيق هدفها بأن تكون حكومة عالمية ، فوعد بلفور الذي أصبح بعد تضمينه ميثاق عصبة الأمم قاعدة دولية يعترف ضمناً بالولاء المزدوج ، ما دام يقر ليهود العالم بالحق في وطن قومي في فلسطين ، ويبقى الميثاق على تعاون بريطانيا مع وكالة يهودية لتحقيق أغراض الوطن القومي .

وفي عام ١٩٥١ أعلنت اسرائيل أنها الدولة الوحيدة التي تمثل « الشعب اليهودي » ، والجديرة بقبض التعويضات عن المذابح والاضطهاد الذي تعرض له اليهود على أيدي الحكم النازي في ألمانيا، لأنها هي التي أخذت على عاتقها مسؤولية تهجير وحماية ما تبقى من « الشعب اليهودي » في فلسطين . وسلمت لها ألمانيا الغربية بهذا الحق وأقرت لها بمبلغ ثمانية مليارات من الدولارات الامريكية ، قبضت منه حتى عام ١٩٦٥ خمسة مليارات . وعلق موشيه شاريت بتاريخ ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٥٢ حين وقع على اتفاق التعويضات بأن « الاتفاق كان حدثاً فريداً في العلاقات الدولية ... اذ وافق شعب عظيم على دفع تعويضات عن جرائم ارتكبها حكم آخر[1] » .

كما أن اسرائيل أقدمت عام ١٩٦٠، أمام عيون العالم كله ، على اختطاف الزعيم النازي ايخمان من الارجنتين ومحاكمته واعدامه (١٩٦٢) ، مع أنها لا تملك أية سلطة من القانون الدولي العام للقيام بذلك ، فايخمان ألماني الجنسية ،

---

(١) اسعد عبد الرحمن ، المساعدات الامريكية والالمانية الغربية لاسرائيل ، بيروت ، ١٩٦٦ ، صفحة ٥٤ .

وكان يمكن أن يحاكم أمام المحاكم الألمانية أو محكمة دولية (بسبب جرائم الحرب المنسوبة اليه) . ولكن اسرائيل كانت في الواقع تستهدف أيضاً هدفاً مزدوجاً[1] فهي تريد من جهة إثبات أنها « السلطة الوحيدة صاحبة السيادة » في العالم اليهودي ، واقناع يهود العالم بأنها وحدها « تملك حمايتهم »[1] .

وبالرغم من أن وزارة خارجية الولايات المتحدة الامريكية وجهت رسالة الى الدكتور المر يرجر نائب رئيس اللجنة التنفيذية للمجلس اليهودي الامريكي ، المناهض للصهيونية ، جاء فيها : « وينبغي أن يكون واضحاً أن وزارة الخارجية لا تعتبر مفهوم « الشعب اليهودي » مفهوماً يتطابق والقانون الدولي »[2] ، مما يعني ضمناً رفض فكرة الولاء المزدوج فان المحكمة العليا الامريكية أقرت ـ خلافاً للقانون الأمريكي ـ بالولاء المزدوج، عندما حكمت في أواخر عام ١٩٦٧ بأن اشتراك اليهودي الامريكي في انتخابات اسرائيل لا يسقط جنسيته الأمريكية[3] .

---

(١) موشي مناحيم ، ص ٤٨٥ .

(٢) ديفز ، ص ٩٠ .

(٣) صدر هذا الحكم الخطير في ٢٩ مايو (أيار) ١٩٦٧ ، وقصته ان مواطناً يهودياً امريكياً يدعى بييز افروييم سافر الى اسرائيل عام ١٩٥٠ ، وفي نوفمبر ١٩٥١ ادلى بصوته في انتخابات الكنيست (البرلمان الاسرائيلي) . وفي عام ١٩٦٠ طلب من القنصلية الامريكية في حيفا تجديد جواز سفره الامريكي ، فرفض على أساس أنه فقد جنسيته الامريكية تطبيقاً للمادة ٤٠١ من قانون الجنسية الامريكي الصادر عام ١٩٤٠ والتي تنص على فقدان المواطن الامريكي جنسيته اذا اشترك في انتخابات سياسية في دولة اجنبية ، وهو حكم اعيد النص عليه في قانون الهجرة والتجنس لعام ١٩٥٢ فطعن الامريكي اليهودي أمام القضاء بعدم دستورية هذا القانون بحجة انه ليس من حق الكونجرس ان ينتزع صفة المواطن من التجنس ، الا اذا تنازل المتجنس عن جنسيته ـ

وعندما تحتج اسرائيل على اعدام عدد من الجواسيس اليهود العراقيين بعد محاكمة قانونية (فبراير ١٩٦٩) فانها إنما تفعل ذلك باسم هذا الحق الذي تدعيه لنفسها : تمثيل اليهود وحمايتهم . وهو حق تملكه دائماً الدولة صاحبة السيادة في اقليمها . والغريب أن عدداً من المسؤولين في العالم ، وبصورة خاصة بريطانيا ، اندفعوا الى الاحتجاج والتظاهر ، مع أنهم لم يحتجوا في اليوم ذاته على قيام الجيش الاسرائيلي باطـــلاق النار على النساء العربيات في قطاع غزة المحتل ، كما أنهم لم يحتجوا بعد ذلك بأيام عندما أعدمت الحكومة العراقية عدداً آخر من المحكوم عليهم بالتجسس ، لأنه لم يكن بينهم يهوداً ، وإذا صرفنا النظر عما في ذلك من تدخل في شؤون الدول الأخرى فان منطق هؤلاء يعني و كأن الانسان اليهودي

=بإرادته ، فرفضت المحكمة الفيدرالية هذا الادعاء ، وأيدتها محكمة الاستئناف ، فلجأ المتقاضي الى المحكمة العليا التي قررت مبدأ خطيراً ، اذ سلمت بحق المواطن الامريكي اليهودي في ان يدلي بصوته في الانتخابات الاسرائيلية دون أن يفقد جنسيته الامريكية ، وبالتالي اعتبرت قانون الجنسية غير دستوري .

ومما يدعو الى الدهشة ان المحكمة العليا سبق لها ان اصدرت حكماً بدستورية هذا القانون منذ عشر سنوات ، في قضية لم يكن المواطن الامريكي فيها (يهودياً) بل كان مكسيكياً ، سافر الى المكسيك وادلى بصوته هناك في الانتخابات . فقررت الحكومة الامريكية انه فقد جنسيته الامريكية ، وأيدت المحكمة العليا قرار الحكومة ، وقضت بأن قانون الجنسية قانون دستوري لأنه لما كان من حق الكونجرس ان ينظم علاقات الولايات المتحدة بالدول الاجنبية ، وكانت هذه العلاقات الخارجية تقتضي تنظيم اسقاط الجنسية ممن يشتركون في انتخابات سياسية في الدول الاخرى لاحتمال ان يؤثر ذلك على هذه العلاقات ، **ولأن قيام المواطن الامريكي بالاشتراك في الانتخابات السياسية في دولة اخرى يهدم ولاءه لوطنه** ، فان القانون دستوري ، وبالتالي فان حرمان هذا المواطن الامريكي (المكسيكي) من جنسيته الامريكية مشروع ! الدكتور جمال العطيفي - ولاء الامريكي اليهودي لاسرائيل - ص ٥ جريدة الاهرام القاهرة ١٩٦٧/١٠/١٠) .

وحده هو الجدير بالرعاية دون غيره من البشر ، وفي ذلك تأكيد للنظرية الصهيونية أن اليهود شعب الله المختار .

ولو عقل هؤلاء لعرفوا أنهم بسلوكهم إنما يعترفون ضمناً بأنهم يبيحون لليهودي البريطاني خيانة وطنه بريطانيا في سبيل اسرائيل .

وتحاول اسرائيل جاهدة في الأمم المتحدة أن تحصل على اعتراف ولو ضمني بحقها في تمثيل اليهود وحمايتهم . وعلى هذا الأساس رفضت قبول لجنة قررت الجمعية العامة للأمم المتحـــدة (١٩٦٨) ارسالها الى المناطق المحتلة للتحقيق في انتهاك اسرائيل لحرمة حقوق الانسان ، معلقة موافقتها على قيام اللجنة بالتحقيق في وضع اليهود الموجودين في البلاد العربية .

خاتمة :

قامت دولة اسرائيل استجابة لاسطورة القومية اليهودية التي بنيت على الدين اليهودي وما يتضمنه من وعد بالعودة الى اورشليم . واستطاعت هذه الدولة منذ عام ١٩٤٨ ان تحقق الكثير من اهدافها ، فاقتلعت شعب فلسطين العربي من أرضه ووطنه ، وأحلت محله مهاجرين تجمعوا من كل الآفاق ، واستطاعت أن تمحوا اسم فلسطين عن طريق اطماع بعض الحكام العرب انفسهم . وبدا وكأن تصفية قضية فلسطين وشيكة الوقوع قابلة للتحقيق بمجرد التوصل الى حل قضية اللاجئين بتوطينهم في الأقطار العربية المختلفة التي لجأوا اليها . وانصرفت اسرائيل الى التوسع في الهجرة ودمج المهاجرين لتكوين الأمـــة اليهودية الجديدة ، والى استغلال الظروف الدولية المختلفة لتحقيق أهدافها في التوسع الاقليمي لاستيعاب مزيد من المهاجرين ، وتحقيق أهدافها في بناء اسرائيل الكبرى الممتدة من النيل الى الفرات .

وتضع اسرائيل نصب عينيها ، في جهودها لتنفيــذ مخططها ، استعمار الأوروبيين لأمريكا ، وقيام الولايات المتحــدة الاميركية ، أقوى دول العالم المعاصر وأكثرها ثروة ، محل الهنود الحمر . ونجد في كتابات بن غوريون اشارات عديدة وبمناسبات مختلفة لذلك . ولئن كان الهنود الحمر أقــلّ عدداً بكثير من موجات المهاجرين الأوروبيين المتدفقة فان اسرائيل تحلم بأن تعوض هذا النقص بالخبرة العلمية واستخدام آخر مبتكرات العلم وتطور التكنيك ، ومن هنا سر الحاحها على امتلاك القنبلة الذرية وتركيزها على الحرب البكتريولوجية ، فضلا عن الاستفادة من تفرق كلمة العرب وتنافرهم وتناحرهم .

ويكشف لنا ناحوم غولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، في تصريح له نشر في مونتريال (كندا) عام ١٩٤٧ شيئاً من الاطماع التي تغذيها اسرائيل والصهيونية العالمية إذ يقول : « لقد كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على اوغندة او مدغشكر أو غيرهما من الأقطار لينشئوا فيها وطناً يهودياً . ولكن اليهود لايريدون على الاطلاق سوى فلسطين . وليس ذلك لاعتبارات دينية أو بسبب اشارة التوراة الى فلسطين ، ولا لأن مياه البحر الميت تستطيع أن تعطي عن طريق التبخير ما قيمته خمسة تريليونات (خمسة آلاف مليار) دولار من المعادن والأملاح المعدنيــة ، وليس كما يقول المستر دالاس لأن تربة فلسطين الجوفية تحتوي على كميات من البترول تبلغ عشرين ضعف كميــات احتياطي البترول في الامريكتين . ولكن لأن فلسطين هي ملتقى الطرق بين اوروبا وآسيا وافريقيــا ، ولأنها هي المركز الحقيقي لقوة السياسية العالمية ، والمركز العسكري الستراتيجي للسيطرة على العالم .

ويؤكد ذلك بن غوريون بصورة اخرى حين يقول : « ان دولة اسرائيل

جزء من الشرق الأوسط من حيث العامل الجغرافي فقط ، وهو في جوهره عامل جامد . أما من حيث العوامل المصيرية الحاسمة ، مثل الطاقات الحركية والابداعية والاغنائية ، فانما إسرائيل جزء من اليهودية العالمية . من هذه اليهودية العالمية تستمد اسرائيل بأسها ، وتستمد وسائل صياغة الأمة وتطوير الأرض ، وقوة اليهودية العالمية إياها سوف تبني اسرائيل مراراً وتكراراً[1] » .

وهكذا فان الحكومة الصهيونية العالمية تطمح الى السيطرة على مقدرات العالم .

ومهما يكن فان الصهيونية ، ووليدتها اسرائيل ، تكون خطراً على كل المجتمعات التي يعيش فيها يهود ، كما تكون خطراً يهدد العلاقات الدولية والأسس التي يقوم عليها القانون الدولي العام . فمحاولة الصهيونية واسرائيل السيطرة على الجاليات اليهودية ستبعث من جديد وبصورة أكثر حدة « المسألة اليهودية » التي قامت اسرائيل بحجة ايجاد حل نهائي لها . والمجتمعات التي فيها يهود لا يمكن لها حرصاً على تماسكها الاجتماعي ، الا ان تتبنى الموقف الذي عبر عنه أحد أعضاء الجمعية التأسيسية الفرنسية عام ١٧٩١ عندما تقرر منح اليهود المساواة التامة ببقية المواطنين : « اننا لا نمنح شيئاً لليهود كشعب ، ونمنح كل شيء لليهود كمواطنين » .

ان الصهيونية لا تشكل حلا ايجابياً للمسألة اليهودية ، والصهيونية والعداء للسامية توأمان ، أو هما على حد تعبير ارنولد توينبي[2] : « الصهيونية والعداء

---

(١) بن غوريون ، بعث اسرائيل ومصيرها ، نيويورك ، ١٩٥٤ ، صفحة ٤٨٩ .

(٢) في مايو ١٩٦١ في اجتماع للمجلس الامريكي لليهودية المناهض للصهيونية ، مشار اليه في (تدهور اليهودية في عصرنا) ، مناحيم ، صفحة ٤٨٦ .

للسامية انما هو تعبيران عن وجهة نظر متماثلة . والفكرتان تقومان على فرضية واحدة ، هي انه يستحيل على اليهود وغير اليهود التعايش في مجتمع واحد ، وبالتالي فان الانفصال المادي هو المخرج العلمي الوحيد . فشعار العداء للسامية هو : « عودوا الى تشرد القرون الوسطى » ، وشعار الصهيونية هو : « عودوا الى (غيتو) قوقعة القرون الوسطى » . على ان تجمع كل هذه الغيتو – القواقع المنتشرة في العالم في بقعة واحدة من الأرض ، هي فلسطين ، لخلق غيتو واحدة راسخ الدعائم .

والمهم فيما يتعلق بنا أن فلسطين وما يجاورها ليست بلاداً مقفرة لاسكان فيها . فهي جزء من الوطن العربي ، وشعبها هم سكانها . فاقامة « الوطن اليهودي » بحدوده التاريخية المزعومة لايمكن أن يتم الا على حساب الأرض العربية والشعب العربي .

فالهجرة اليهودية لاتعدوا أن تكون غزواً بشرياً اجنبياً لأرض عربية ، ولا تستقيم الا مع استئصال السكان العرب أو بتهجيرهم بالعنف والاكراه للحلول محلهم . انه استعمار بالتوطن ، أخطر من كل الصور التي تجلى فيها الاستعمار التقليدي ، شأنه شأن السرطان يبدأ خفياً ولا ينفك ينمو حتى يقضي على الجسم الحي . فوجود اسرائيل منعزلة في بقعة صغيرة من الوطن العربي يجعل منها بالضرورة ، كما أرادها هرتزل ، حليفة للاستعمار العالمي ، تجره بفضل الصهيونية العالمية وسيطرتها الخفية على مقدرات عدد من الدول الغربية الكبرى الى تنفيذ مخططاتها التوسعية والعدوانية . وقد استطاعت في أقل من أحد عشر عاما (١٩٥٦ و ١٩٦٧) أن تشن حربين على العرب وتعرقل تطورهم الاقتصادي والاجتماعي وتحررهم ووحدتهم .. وهي تحاول اليوم أن تفرض على الدول العربية

الاستسلام والاعتراف لها بحدود ثابتة ، واكثر من ذلك كله ، لجم الفلسطينيين – سكان البلاد الأصليين – ومنعهم من المطالبة بحقوقهم المشروعة في وطنهم ، والتي اعترفت لهم بها هيئة الأمم المتحدة في حدودها الدنيا (العودة الى فلسطين). ان التحدي الصهيوني سيفرض على العرب الوحدة أو ينقرضوا . انها معركة مصير ، فأما الوجود العربي الكامل أو الوجود الصهيوني الكامل .

لقد فشلت كل جهود اسرائيل في تصفية قضية فلسطين . فبعد عشرين عاماً من قيام اسرائيل بدأ الكيان الفلسطيني العربي يظهر ويفرض نفسه ، بدماء الشهداء ، على الموقف في الشرق الأوسط . وما من حل عادل يمكن أن يكون الا بعودة الفلسطينيين العرب المشردين الى ديارهم بعد زوال الطابع الصهيوني لدولة فلسطين .

لقد عاش اليهود بين العرب قروناً طويلة لم يشهدوا اضطهادات أو مذابح ، وفي الأندلس العربية الاسلامية كان من اليهود علماء وفلاسفة ووزراء ، وهذه الصورة يمكن أن تتكرر عندما يتخلى اليهود في فلسطين عن الصهيونية – فالصهيونية هي أساس البلاء – فشعارها سفر أشيعا : « لا تمنحوا أنفسكم سكينة أو سكونا ، ولا تتركوا للامم فرصة للراحة حتى تبنى صيهون من جديد وتضمن وحدة الشعب اليهودي ، وحتى تصبح أورشليم بحق رمز الوحدانية اليهودية ومجد الأرض كلها » والى أن يتخلى اليهود عن الصهيونية أو يقضي عليها كتنظيم سياسي وعسكري في اسرائيل – الدولة التي تجسدها – فالصراع مستمر .

حول التكتلات الاقتصادية

د. أحمد مراد

اتسم الاقتصاد الدولي فيما بعد الحرب العالميـــة الثانية بظاهرة التكتل الاقتصادي . فالاقتصاديات الوطنية التي نمت بين الحربين العالميتين الى الاكتفاء الذاتي والحماية الجمركية ، والانطواء على النفس، عملت بعد الحرب العالمية الثانية على التعاون الاقتصادي مع بلدان معينة اختارتها لصفةعقائدية مذهبية ، أولصفة قومية ، أو لصفات سياسية واقتصادية .

ان موضوع التكتلات الاقتصادية موضوع واسع، ولكننا في معرض هذا البحث سنعرض فقط لماهية التكتلات الاقتصادية الدولية وأنواعها ومبررات قيامها

أولا ـ ماهية التكتلات الاقتصادية الدولية :

تنشأ التكتلات الاقتصادية بين مجموعة من الدول المتقاربة في المصالح والأهداف . وقد تجمع بينها أيضاً وحدة الموقع الجغرافي ، وان كان هذا ليس ضرورياً في جميع الأحوال . ومن الطبيعي أنه لابد من توفر شروط اقتصادية معينة لتأمين النجاح لهذه التكتلات الاقتصادية . ومن أهم هذه الشروط الاقتصادية تنوع الموارد الطبيعية وتكامل المشاريع الانتاجية . ويعتبر العامل السياسي ذا أثر بارز على نشوء مثل هذه التكتلات الاقتصادية . وهو يلعب دوراً هاماً في نجاح هذه التكتلات ، وخاصة في المراحل الأولى . ويشارك في الموضوع أيضاً مجموعة عوامل غير اقتصادية .

ويعني التكتل الاقتصادي في نطاق بحثنا، تجميع اقتصاد دولتين أو أكثر ضمن حد معين من التكتل . والواقع ان مفهوم التكتلات الاقتصادية يختلف فيه كثيراً . ويشير م بيلا بالاسا (١)، الى أن التكتل الاقتصادي لايشير الى معنى واضح محدد ومفهوم . فبعض الباحثين الاقتصاديين يعتبرون الاندماج الاجتماعي، ضمن مفهوم الاندماج الاقتصادي . وهؤلاء لايرون في التكتل والاندماج الاقتصادي ، إلا أعلى أشكاله .

ويرى فريق آخر أن جميع الأشكال المختلفة للتعاون الاقتصادي الدولي -- من أبسط إلى أعلى أشكاله - تدخل في مفهوم التكتل الاقتصادي . ويرى فريق ثالث التوسع في مفهوم التكتلات الاقتصادية الدولية ، فيعتبر مجرد قيام العلاقات التجارية المميزة بين دولة وأخرى داخلاً في مفهوم التكتل الاقتصادي .

---

(١) Bela Ballassa : Theory of Economic Integration, P I

والواقع أن الهدف الأساسي من خلق أي تكتل اقتصادي هو تنسيق العناصر الاقتصادية المختلفة كلياً أو جزئياً ضمن هذا التكتل ، والعمل على ملاءمة أوجه النشاط الاقتصادي لتخدم الأهداف المشتركة المرسومة بصورة موحدة . وهذا يعني أن التكتل الاقتصادي بمختلف أنواعه وأشكاله ، وسواء كان من تكتلات القرن الماضي أو من تكتلات القرن العشرين «هو » وضع نظري معين أخذ طابعاً تطبيقياً بين الدول الأعضاء في منظمة واحدة أو التي تشترك في مساحة جغرافية معينة »[1] .

ويرى غونار ميردال[2] ان مفهوم التكتل الاقتصادي لابد وان يشتمل على العمل على زيادة الكفاءة الانتاجية ضمن الكتلة الاقتصادية المشكلة ، وذلك مع اعطاء الفرص الاقتصادية المتساوية للأعضاء في هذا التكتل الاقتصادي بغض النظر عن جنسياتهم .

ويعتبر البعض أن التكتل الاقتصادي الشامل يجب أن يشتمل على توحيد السياسات المالية والنقدية والاجتماعية ، كما يتطلب انشاء سلطة عليا تلتزم الدول الأعضاء بقراراتها . وبذلك يتقارب هؤلاء مع فئة أخرى من الاقتصاديين، ذوي النزعات السياسية التحليلية الذين يضمنون التكتل الاقتصادي هدفاً سياسياً معيناً هو العمل على تكوين نوع من الاتحاد الفيدرالي الاقليمي . وبذلك يصبح التكتل الاقتصادي خطوة في سبيل هدف سياسي . والواقع أن التكتل الاقتصادي لا يعني بالضرورة قيام اتحاد سياسي تام بين الدول المشكلة للتكتل ، وان كان وجود

(١) راجع : د . صلاح الدين نامق : التجارة الدولية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٦ ، ص ٣٣٧ .

(٢) Gunnar Myrdal :an International Economy, Problems and Prospects, Harper and Brothers Publishers . New York 1954

مثل هذه الوحدة السياسية أو التشريعية يدفع التكتل السياسي خطوات كبرى الى أمام .

والواقع أنه لابد لنا من التفريق بين مفهوم التكتل الاقتصادي لدى كل من أنصار مذهب الحرية الاقتصادية ، وأنصارمذهب التوجيه الاقتصادي،ومفهوم التكتل الاقتصادي لدى أنصار المذهب الاشتراكي وأساوبه التخطيطي .

١ – يقوم مذهب الحرية الاقتصادية على وجود اقتصاد تتحكم فيه عفوية العرض والطلب في السوق،وفي التفاعل الاقتصادي،حيث تقود المزاحمة الاقتصادية الى التمركز الأفقي والشاقولي ومن ثم الى الاحتكار . وتعتبر مدرسة الاقتصاد الحر ان التكتلات الاقتصادية تتحقق في أعلى درجاتها عندما يكون التعامل بين فردين،مقيم كل منها في هذا البلد أو ذاك،مشابهاً كثيراً للتعامل بين فردين مقيمين في نفس البلد . وترى هذه المدرسة أن التفاعل العضوي بين الاقتصاديات المختلفة، على أساس حرية العرض والطلب، يمثل السير نحو ترابط هذه الاقتصاديات المختلفة . ولذلك يطالب اعلام هذه المدرسة باستلهام الأوضاع التي كانت سائدة خلال القرن الماضي في حرية التجارة وحرية تحويل وسائل المدفوعات ، أي خلق منطقة تبادل حرة قائمة على التبادل الحر .

ويمكن تلخيص مذهب هذه المدرسة من حيث نزوع اقتصاديات متعددة للسير في الطريق المؤدية للتكتل الاقتصادي بالنقطتين التاليتين[1]:

آ – عندما تنزع أسعار السلع والخدمات المماثلة لأن تكون متساوية في مختلف الأقاليم التي سيشملها الاتحاد الاقتصادي .

---

(١) هشام متولي : نماذج التكامل الاقتصادي والوحدة الاقتصادية ، الاقتصادي العربي، العدد ١٩٣ دمشق ٢١/٢/١٩٦٧ .

ب – عندما يختص كل اقتصاد من هذه الاقتصاديات ، تبعاً لأثر حرية التبادل ، ووفقاً لقانون التقسيم العالمي للعمل ، ووفقاً لقانون التكاليف النسبية .

وتشكل التكتلات الاقتصادية في القرن الماضي – كالكومنولث وغيره – أمثلة لدعم هذا المفهوم .

٢– ويقوم مذهب التدخل الاقتصادي على تدخل الدولة بقانون العرض والطلب والسياسة الاقتصادية بغية تحقيق أهداف معينة من حيث التنسيق في الانتاج فيما بين الدول، عن طريق اتباع خطة معينة أو برنامج معين .

ويعتقد أصحاب هذه النظرية أنه لايمكن تحقيق تكتل اقتصادي بأي درجة من درجاته ،على سير العقوبة الاقتصادية وفقاً لمبدأ الحرية الاقتصادية . فالحرية التجارية المطلقة هي شيء نظري غير موجود .

ويختلف عصرنا الحالي عن العصر السابق . ان البنية الاقتصادية لكل بلد من البلدان و كذلك البنية الاقتصادية للاقتصاد العالمي – قد تغيرت تغيراً محسوساً عما كان عليه الحال في القرن الماضي . وقد تدخلت الدولة دوماً وباستمرار في الشؤون الاقتصادية على نطاق الدولة الواحدة وعلى نطاق دولي ، ولذا أصبح كل تكتل اقتصادي بدون تدخل الدولة وتعاون الدول مع بعضها أمراً غير ممكن . ان من الضرورة بمكان كبير رسم سياسات متفق عليها من جميع الأطراف ، من أجل اقامة وتطوير نوع أو آخر من التكتل الاقتصادي . وتشكل، كل من السوق الأوروبية المشتركة والسوق العربية المشتركة ومنظمة التجـارة الأوربية الحرة والسوق الافريقية المشتركة ، أمثلة على صحة هذا الرأي .

ان هذه المدرسة لاترفض فكرة حرية التجارة والدفع من حيث الأساس . ولكنها تصر على ضرورة تدخل الدولة لتنظيم عمليات لتنسيق التعاون بين

البلدان اعضاء السوق ، وذلك باعتبار الدولة تحتل المركز الموجه للحياة الاقتصادية في المجتمع الحديث .

ان المشروع الفردي الخاص هو الاساس في كلا المذهبين : مذهب الحرية الاقتصادية ومذهب التدخل الحكومي . ويكمن الخلاف فقط في دور الدولة . وقد توافق الاتجاه الأول مع مرحلة معينة من مراحل تطور الرأسمالية ، هو ازدهار النظام الرأسمالي . ويتوافق الاتجاه الثاني ، مذهب التدخل الحكومي ، مع مرحلة أزمة الرأسمالية والاستعمار في العالم .

٣ – ويقوم المذهب الاشتراكي على مفاهيم مغايرة تعتمد المشروع العام اساساً للتكتل الاقتصادي ، وتعتبر الدولة امراً لاغنى عنه من أجل إقامة وتطوير التكتل الاقتصادي ، وذلك من خلال اتباع نظام التخطيط . ويشكل الكوميكون (مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل) نموذجاً لهذا المذهب . ان التكتل انما يتم نتيجة خطوات عديدة تقوم بها الدولة من خلال تنسيق الخطط الاقتصادية الطويلة الامد للانتاج والتجارة الخارجية ، وتبادل الوثائق والتصاميم ، والتعاون في البحث العلمي ، واقامة المشروعات والمنشآت المشتركة ، واستخدام الحصر الحكومي للتجارة الخارجية من اجل تشكيل سوق دولية اشتراكية لبضاعة ينتجها هذا البلد الاشتراكي او الآخر . ان التكتل الاقتصادي حسب المذهب الاشتراكي يتكامل من خلال مشاريع التنمية بصورة رئيسية . وقد توصلت بلدان الكوميكون حتى الآن الى تنسيق مشاريع التنمية فيها لمدة ٢٠ سنة مقبلة .

ثانياً ـ انواع التكتلات الاقتصادية :

وقد فرق الاستاذ « بلاسا » في كتابه عن نظرية التكتل الاقتصادي

بين عدة درجات او انواع من التكتلات الاقتصادية . وهذه الانواع من التكتلات هي [1] :

١ ـ **منطقة التجارة الحرة** : حيث تعمد البلدان الاعضاء الى تخفيف الرسوم الجمركية والقيود الكمية بالتدريج حتى تزول بشكل تام وتتم حرية انتقال السلع ، ولا تتضمن منطقة التجارة الحرة هذه بالضرورة حرية انتقال الاموال والاشخاص . ويحتفظ ،كل عضو من اعضائها ، بتعرفاته الجمركية تجاه البلدان الأخرى غير الاعضاء في الكتلة. وهذا يعني ان كل دولة تحتفظ ، بجدارها الجمركي ، تجاه الدول غير الاعضاء .

٢ ـ **الاتحاد الجمركي** : ويتميز هذا الشكل من التكتل الاقتصادي بالغاء جميع أصناف المعاملات التفضيلية والحواجز الجمركية أو التجارة فيما يتعلق بحركة البضائع داخل نطاق الاتحاد الجمركي ، وتوحيد التعرفات الجمركية للدول الأعضاء تجاه العالم الخارجي . وهذا يعني اقامة جدار جمركي بين دول الاتحاد تجاه البلدان غير الأعضاء . ولا يشترط الاتحاد الجمركي بالضرورة حرية انتقال الأموال والأشخاص .

٣ ـ **السوق المشتركة** : وتتضمن السوق المشتركة ، إزالة الحواجز الجمركية بين الدول الأعضاء واقامة جدار جمركي موحد تجاه البلدان

---

(١) راجع بيلا بلاسا ، المرجع السابق ، وقد تابعه على ذلك د . محمد الاطرش ، راجع (ملاحظات حول اتفاقية الوحدة الاقتصادية)، البحث المقدم الى المؤتمر الدولي الرابع للعلوم السياسية الذي عقدته الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية في بيروت بين ٢٩ تشرين الثاني و ٢ كانون الاول ١٩٦٥ لبحث موضوع الاسواق المشتركة في العالم ، و د . خليل حسن خليل (الاتفاقيات الاقتصادية واثرها في التعامل الاقتصادي العربي) ، الاقتصاد عدد ١٧ دمشق ١٩٦٨/٥/١٦ .

غير الأعضاء وإزالة القيود على انتقال عوامل الانتاج بين البلدان الاعضاء ، أي حرية انتقال الأموال والأشخاص .

٤ ـ **الوحدة الاقتصادية** : ويتميز هذا الشكل من التكتل الاقتصادي بالعلائم الاساسية للسوق المشتركة ، وذلك بالاضافة الى تنسيق عدد من السياسات المتبعة بين البلدان الاعضاء ، كالاسعار ، والاجور ، ومعدل الفائدة .. وغيرها . وذلك بغية ازالة التمييز الناشيء عن اختلاف هذه السياسات بين البلدان الاعضاء .

٥ ـ **الاندماج الاقتصادي الكامل** : وهو يفترض توحيد السياسات النقدية والمالية والاجتماعية ، ويستوجب هذا النوع وجود سلطة عليا تتمتع بصلاحية اصدار القرارات الملزمة لجميع البلدان الاعضاء .

والواقع ان تقسيم وب . بالاساس هو تقسيم لدرجات التكتل الاقتصادي في نظام رأسمالي ، وليس تقسيما نوعيا للتكتلات الاقتصادية . ان تقسيم التكتلات الاقتصادية من حيث أنواعها يجب ان ينطلق من نوعية الاقتصاد القائم في هذه التكتلات ، لا من درجاتها . والواقع انه لا بد لنا بادىء ذي بدء من التمييز بين نوعين من التكتلات الاقتصادية :

١ ـ التكتلات الاقتصادية التي جرت في القرن الماضي مثل الكومنولث وغيره . وهي تكتلات استعمارية قامت على مذهب حرية التجارة وهدفت الى تقوية ارتباط اقتصاد البلدان المستعمرة والتابعة باقتصاد الوطن الام . وقد كان الاساس الاقتصادي لهـذه التكتلات الاقتصادية هو مذهب حرية التجارة بين بلدان المتروبول وبلدان المستعمرات ، وربط هذه البلدان بعضها من خلال التقسيم

الدولي للعمل والحكم العسكري المباشر ، لقد اتخذت هذه التكتلات الاقتصادية شكل امبراطوريات سياسية – عسكرية : كالامبراطورية البريطانية والامبراطورية الفرنسية ... وغيرها . (١)

٢ – التكتلات التي جرت في القرن الحالي وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية : وهي تكتلات متنوعة الطبيعة . فمنها تكتلات اشتراكية ، ومنها تكتلات استعمارية ، ومنها تكتلات البلدان النامية . وتلعب الصلة الجغرافية لهذه التكتلات دورا معينا في تركيبها . كما ان المحتوى الاقتصادي الاجتماعي لهذه التكتلات يختلف من مجموعة الى اخرى وذلك تبعا للنماذج الاقتصادية الموجودة في عالم اليوم.

وتقوم مجموعة هذه التكتلات على اساس من تدخل الدولة في الموضوع وادارة مجموع عملية التكامل الاقتصادي ضمن الكتلة الاقتصادية الواحدة ، واتخاذ الاجراءات اللازمة من خلال اللجان والمجالس والقرارات لوضع الاتفاقات موضع التنفيذ .

ان هذا التفريق التاريخي يفرز بالواقع التكتلات الاقتصادية من حيث الزمن ، وبالتالي من حيث الاسس الموضوعية التي تحكم نشوء التكتلات الاقتصادية في القرن الماضي او في القرن الحالي . ولكن هذا التقسيم لا يعطي الطبيعة الاقتصادية الاجتماعية للتكتلات الاقتصادية القائمة ، ولا يمكن من ادراك الاساليب العميقة الكامنة وراء نشوء هذه الكتل الاقتصادية . ولذلك لا بد من التأكيد على تقسيم اساسي للتكتلات الاقتصادية بعد الحرب العالمية الثانية يوضح الاسس

---

(١) راجع : د . احمد مراد : البلدان النامية في النظام النقدي الرأسمالي ، جريدة البعث العدد ١٨٥٤ دمشق ١٩٦٩/٤/١١

الموضوعية التي تحكم نشوء وعمل هذه التكتلات الاقتصادية . وفي هذا المقام لا بد من التفريق بين الأنواع الثلاثة التالية :

١ ـ التكتلات الاقتصادية الناشئة في نطاق الدول الرأسمالية المتطورة في اوربا الغربية وامريكا الشمالية مثل السوق الاوربيـــة المشتركة ، ومنظمة التجارة الاوربية الحرة ، و كتلة الولايات المتحدة ـ كندا . ان القوانين الاساسية الحاكمة لنشوء وعمل هذه التكتلات الاقتصادية انما هي القوانين الاقتصاديـــة الرأسمالية في مرحلة الامبريالية . وقد نشأت هذه التكتلات بعامل تطور الاحتكارات من مستوى قومي الى مستوى دولي ، وعامل تكتل قوى الرأسمالية في مواجهة النظام الاشتراكي المتطور . ان هدف هذه التكتلات هو تقوية الامبريالية العالمية وزيادة تصدير البضائع ورؤوس الاموال الى البلدان النامية (١) .

٢ ـ التكتلات الاقتصادية الناشئة في نطاق الدول الاشتراكية ، والتي اتخذت من خلال التطور شكل « الكوميكون ـ مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل » . وتقوم السوق الدوليـــة الاشتراكية على اساس التخصص الدولي الاشتراكي للعمل ، وتعاون الدول في مجالات البحث العلمي ، ووضع التصاميم ، واقامة المشاريع المشتركة . وتعتمد هذه الكتلة على القوانين الاقتصادية للنظام الاشتراكي ، وعلى العمل المشترك بين الدول الاعضاء من خلال تخطيط مشاريع التنمية والانتاج والتجارة الخارجية والمدفوعات . ان هدف هذه التكتلات هو اقامة اقتصاد متكامل وموحد بين بلدان هذه السوق الدولية الاشتراكية .

---

(١) لشرح طبيعة هذه التكتلات راجع :

Y'VARGA : Politico - Economic Problems of capitalism. Progress Publishers, Moscow 1968

٣ ـ التكتلات الاقتصادية في البلدان النامية ، اي في بلدان العالم الثالث في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية مثل : السوق العربية المشتركة والسوق الافريقية المشتركة والسوق المشتركة لبلدان امريكا اللاتينية . ان الهدف الاساسي لهذه التكتلات الاقتصادية انما هو توحيد الجهود الاقتصادية لهذه البلدان في مقاومة الغزو الاقتصادي الخارجي ، والتعجيل بالتنمية الاقتصادية في هذه البلدان ، وتشكيل اسواق واسعة لتصريف بضائعها المنتجة فيما بينها وعلى حساب مستورداتها من الدول الاجنبية . (١)

وتحتل السوق العربية المشتركة مركزا خاصا في هذا النوع الثالث من التكتلات . وذلك لانها تقوم لا على عوامل اقتصادية وسياسية فقط ، بل وعلى اساس عوامل قومية . فالسوق العربية المشتركة هي الكتلة الاقتصادية الوحيدة التي تقوم بين دول تشكل قومية واحدة ، وبالتالي فان للسوق العربية المشتركة خاصة اساسية تميزها عن جميع التكتلات الاقتصادية في العالم ، وهي كونها كتلة اقتصادية قومية . كما ان للسوق الاقتصادية العربية هدف اساسي يميزها من مختلف التكتلات الاقتصادية الاخرى وهو توحيد الاقطار العربية واقامة دولة موحدة . الامر الذي يمكن ان يجعل من السوق العربية المشتركة زمرة من الكتل الاقتصادية قائمة بذاتها .

ثالثا ـ عوامل قيام التكتلات الاقتصادية :

ثمة العديد من التكتلات الاقتصادية في مختلف انحاء العالم بهذه الدرجة او تلك ، وهناك محاولات من قبل العديد من بلدان العالم الاخرى لاقامة تكتلات

(١) راجع د . احمد مراد : البلدان النامية في النظام النقدي الرأسمالي ، المرجع السابق و « الوحدة الاقتصادية العربية ـ معانيها واهدافها » اعداد وزارة الاقتصاد في الجمهورية العربية السورية ، ايلول ١٩٦٥ .

اقتصادية تقوي مركز الدول الاعضاء في جو المنافسة التي تسود التجارة الدولية .

ان العوامل التي تدفع الدول الى اقامة التكتلات الاقتصادية مختلفة جداً، وهذه العوامل هي في الأساس عوامل اقتصادية وسياسية . وهناك ايضا عوامل اخرى قومية ومعنوية وتاريخية ومذهبية ... الخ ، ترفد العوامل الاقتصادية والسياسية وتقويها .

هناك عوامل مشتركة بين الأنواع الاقتصادية-الاجتماعية الثلاثة للتكتلات التي ذكرناها أعلاه وهي : تكتلات البلدان الاشتراكية ، تكتلات البلدان الرأسمالية المتطورة ، وتكتلات البلدان النامية . ولكن عدداً من العوامل الاخرى يختص بالنوع الاقتصادي والاجتماعي للتكتل . ان أسباب قيام التكتلات الاقتصادية عديدة جداً وتتشابك فيها العوامل الاقتصادية والسياسية والايديولوجية (١) .

ان زيادة الثقل السياسي والقوة العسكرية إنما هو حصيلة لزيادة القوة الاقتصادية الناجمة عن التكتلات الاقتصادية وعن زيادة الدخل القومي للدول الأعضاء بنتيجة هذا التكتل . ولذلك فان الاعتقاد بأن التكتل الاقتصادي يزيد نسب نمو الدخل القومي في الدول الأعضاء ككل يلعب دوراً هاماً في العمل من أجل خلق التكتلات الاقتصادية على مختلف أنواعها ودرجاتها .

والاعتقاد السائد بان التكتل الاقتصادي يؤدي الى زيادة نسب نمو الدخل القومي للدول الأعضاء ككل إنما يرجع الى مايلي :

---

(١) راجع على سبيل المثال أسباب قيام الوحدة الاقتصادية العربية في « الوحدة الاقتصادية العربية معانيها وأهدافها » المرجع السابق، و « التكامل الاقتصادي في الوطن العربي » من كتاب « الموارد الاقتصادية في الوطن العربي » تأليف محمد صبحي عبد الحكيم وزملائه ، دار القلم ١٩٦٦

١ – رفع إنتاجية العمل نتيجة إقامة المشروعات الكبرى وازدياد المنافسة بين المشروعات .

٢ – زيادة التخصص في الإنتاج وتطوير فروع اقتصادية قائمة أو جديدة حسب مؤهلات عوامل الإنتاج .

٣ – التمكن من الإنتاج على نطاق واسع نتيجة توسع السوق .

٤ – تقليص نسبة الإعتماد على العالم الخارجي ، وهذا من شأنه ان يحسن شروط التبادل بين الدول الأعضاء .

لقد كانت التكتلات الاقتصادية في القرن الماضي قائمة على تجميع اقتصاد المستعمرات حول اقتصاد الوطن الأم وفي خدمته ، وبذلك نشأ الكومنولث وكتلة الفرنك الفرنسي وغيرهما، فكان طابع التكامل الاقتصادي هو السائد في مثل هذه التكتلات . وقد تطور الوضع منذ الحرب العالمية الثانية ، ومع تحرر بلدان العالم الثالث ، فأصبحت التكتلات الاقتصادية ذات نوعيات مختلفة، وذلك حسب طابع وميزة الاقتصاديات التي تخدمها هذه التكتلات : في اقتصاديات رأسمالية كما هو الحال في السوق الأوربية المشتركة، أم في اقتصاديات إشتراكية ، كما هو الحال في الكوميكون (مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل) ، أو في إقتصاديات نامية ، كما هو الحال في الوحدة الاقتصادية العربية والسوق العربية المشتركة أو السوق الأفريقية المشتركة أو السوق المشتركة لأمريكا اللاتينية . ان ضرورة إقامة التكتلات الاقتصادية في البلدان الرأسمالية التطور تنبع من تمركز رؤوس الأموال فيها . وطابعها تقوية سلطة وسيطرة الرأسمال في السوق التجارية الدولية ، اما ضرورة إقامة التكتلات الاقتصادية في البلدان الاشتراكية فناجمة عن القوانين الاقتصادية في البلدان الاشتراكية في التطور المتناسق للاقتصاد الاشتراكي على

مستوى فوق قومي . وتتبدى ضرورة إقامة التكتلات الاقتصادية بين الاقتصاديات المتخلفة في تحقيق الهدفين الأساسيين بالنسبة لهذه الاقتصاديات وهما : ضبط التجارة الخارجية وإزالة العقبات من طريقها من جهة ودفع الامكانية الاقتصادية المعتمدة على خلق وسير الحركة التصنيعية من جهة ثانية .

آ - ان ضرورة إقامة تكتل إقتصادي بين البلدان الصناعية المتطورة إنما يرجع الى عملية تمركز رؤوس الأموال [1] . ان الاحتكارات التي تطورت الى مستوى عالمي تنزع الى توحيد الأسواق العالمية تحت سيطرتها ، وتنسيق حركة اندماجها على مستوى دولي وتوزيع الأسواق بينها . ان متابعة تطوير الصناعات والفروع الصناعية في البلدان الرأسمالية المتطورة لم تعد ممكنة في اطار قومي حيث تتزاحم مختلف الاحتكارات القومية التي أصبح إنتاجها ذا صفة عالمية . وأصبح لا بد من تنسيق عملها على المستوى الدولي وتحقيق اندماجات فيها تؤدي الى تصفية المؤسسات الصغيرة ، وإدخال الطرائق الفنية الحديثة فيها . وهذا ينطبق بالطبع بصورة رئيسية على بلدان العالم الرأسمالي المتطور . ويتداخل مع هذا العامل الاقتصادي عوامل اقتصادية أخرى مثل توسيع السوق « الداخلية » وتأمين قطاع أوسع من المستهلكين . كما يرتبط بذلك عوامل سياسية عديدة ، تتبدى في كل كتلة من كتل الدول الرأسمالية المتطورة الثلاث : السوق الأوروبية المشتركة ، ومنظمة التجارة الاوروبية الحرة ، والاندماج الأمريكي - الكندي .

ب - وينطلق التكتل الاقتصادي في البلدان الاشتراكية من خلال مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة إلى إيجاد سوق عالمية اشتراكيـة وذلك عن طريق إقامة المشروعات الضخمة والتخصص في الانتاج وزيادة تبادل البضائع

---

(١) راجع Y.VARGA المرجع السابق .

لن السبب الأساسي لإقامة هذه الكتلة إنما هو تأمين وحدة عضوية تمنع تفكك إقتصاديات البلدان المختلفة لهـــذه المنظمة ، وإقامة اقتصاد موحد على أساس أممي .

ويضاف الى ذلك عدد من العوامل الأخرى منها تسريع وتأثر النمو لهذه البلدان ، وزيادة الدخل القومي فيها ، ومنـــافسة الاقتصاد الرأسمالي . وتلعب العوامل الإيديولوجية هنا دوراً هـــاماً في الموضوع ، كما ان العوامل السياسية والعسكرية ذات تأثير مباشر .

ج ـ أما التكتل الاقتصادي في البلدان النامية فهو من الأمور الضرورية جداً من أجل التجارة الخارجية وإزالة العقبات من طريقها ، ودفع الإمكانيـــة الاقتصادية المعتمدة على خلق وسير الحركة التصنيعية . ان حماية السوق المحلية من تأثيرات السوق العالمية ،وتوسيع نطاق السوق الضعيفة التطور من أجل مجابهة احتياجات التطور الرأسمالي هما السببان الرئيسيان لإقامة التكتلات الاقتصادية في البلدان النامية .

ان احلال المنتوجات الوطنية محل المنتوجات الأجنبية ، وتوسيع السعة الاستيعابية للسوق الضعيفة التطور تجاه الإنتاج الصناعي الغزير،ومنافسة أسعار البلدان المتطورة عن طريق زيادة الانتاج وتخفيض تكاليفه،دفعت البلدان المتخلفة الى إقامة التكتلات الاقتصادية . ويضاف الى هـذا العامل الاقتصادي الأساسي العديد من العوامل الأخرى التي تتبدى في تحقيق الاستقلال الاقتصادي ، ومقاومة الضغوط الاستعمارية ،وزيادة إمكانيات التنمية ،والرد على التحدي الاستعماري . كما يلعب الموضوع القومي دوراً بارزاً في تطور السوق العربية المشتركة ، وتلعب وحدة الهدف أيضاً دوراً نفسياً في السوق الأفريقية المشتركة .

نظرة في الأدب الفيتنامي

ومختارات شعرية

د. أحمد سليمان الأحمد.

قد يكونُ الأدبُ الفيتنامي والنضالُ الفيتنامي على طرفي نقيض من حيث الشهرة ، ولكن الشيء الصحيح أيضاً هو أن كلاً منهما وفيّ لصاحبه ، واجدٌ فيه مجالاً رحباً للاعتزاز .

وفي بحثنا هذا سنقتصر على دراسة ما تعارف الناس على تسميته بالأدب الفيتنامي ، وانما هو في الواقع أدب شعب « الكين » الذي يكاد يستقطب أجمل وأعمق ما في إبداع هذا الشعب العبقري في حالتيه من بيان ونضال .

ومثل جميع الآداب الجديرة بهذا الاسم ، ينصب اهتمام الأدب الفيتنامي على الانسان وعلى القضايا الرئيسية المطروحة أمامه . كان هناك ، قبل كل شيء ، النضال ضدالطبيعة . فالطبيعة في الفيتنام لا تنضب موارد غناها وخصبها ، ولكنها لا تهب ثرواتها إلا إذا رُوِّضَتْ ، وليس من السهل ترويضها .

والى جانب الصراع مع الطبيعة ، كان على الشعب الفيتنامي أن يناضل نضالاً صعباً وطويلاً في سبيل الحفاظ على استقلاله الوطني الذي كان يتهدده جيران أقوياء تجذبهم وتغريهم تلك الثروات الغزيرة .

لقد كان تاريخ الفيتنام سلسلة من النضال المتواصل ضد أطماع الغزاة ، وكانت الامبريالية الاميركية أشرس اولئك وستكون آخرهم بلا شك . يضاف الى ذلك النظام الاقطاعي الذي امتدت ضراوته وطالت اكثر من المعتاد ، وما تزال تهيمن في جنوب الفيتنام .

وحتى ثورة آب عام الف وتسعمئة وخمسة وأربعين كان تاريخ الفيتنام يكاد لايتقدم وإنما هو يُراوح في مكانه طوال قرون ، دون التوصل الى الانعتاق من الاقطاعية ، وما تجره من مصائب وآلام .

هذه المآسي التي تمد رواق ليلها على كيان الملايين ، عرضهـا الأدب بأشكال مختلفة وأسهم في حلها على طريقته الخاصة ، ولكن بشكل فعال . ولنذكر على سبيل المثال : « اسطورة تاش سان » . هذه الاسطورة ملحمة حقيقية تمجد العمل . فالفلاح الشاب ينتصر بقوته ومهارته وإخلاصه ، على قوى الشر التي تنقض عليه ، الواحدة بعد الأخرى . وتحت ضربات فأسه يتهاوى الوحش الذي يقتضي ، كلّ عام ، ضحايا بشرية عديدة . وبسهمه يصيب طائراً مخيفاً كان يثير الرعب . أما قِدْرُهُ الصغيرة الملأى أرزاً فلا تفرغ أبداً .

ومثل هذه ، اسطورة الطفل « دوك تان جيونغ » الذي يشب فجأة لدى سماعه نبأ اجتياح العدو لبلاده ، فيمتطي جواداً من حديد يقذف بالشرر ، ويمضي لمقاتلة الغزاة . وفي قلب المعركة ينقصف رمحه ، فينتزع من الأرض الكريمة خيزرانة يمزق بها جيوش العدو ، ثم يرتفع على جواده الى السماء محاطاً بغمامة جميلة حمراء .

وإلى جانب الأساطير تحوم أجنحة لاحصر لها في سماء الأقاصيص والخرافات والنقد والحكايات الهزلية ، تحملنا الى قلب الحياة الفيتنامية القديمة ، وتكشف عن ثروة أدبية غامرة ليس بمقدورنا الآن أن نقدم عنها ولو لمحة سريعة ، ولكن ، مهما يكن فلا بد من التوقف لحظة أمام الأغاني الشعبية .

إنها ، في الغالب ، أناشيد كان يغنيها الشباب والفتيات لينشروا الفرحة في تلافيف العمل . ويؤلف الحب الموضوع الأساسي لهذه الأغاني على الرغم من تشدد الأخلاق الكونفوشيوسية في هذا المجال . وتنساب في تلافيف الكثير منها روح شاعرية مرهفة ، تتحلى بعمق الشعور والتفكير ، وبهذه الطلاوة في التعبير التي تميز الابداعات الشعبية .

وتتحدث هذه الأغاني أيضاً عن آلام الشعب ، وثوراته وتمرده ، عن آماله وحبه للعمل ، عن السلام والحرية . وهكذا نراها تعمل هدماً ونقداً بالتقاليد التي تستغلها الطبقات القديمة الحاكمة كدعوى الحكم السماوي الذي أعطى مقاليد الامور للأسر المالكة ، ونسمع أغنية شعبية قديمة تقول :

ابن الملك سيصعد على العرش
وابن حارس الهيكل سيكنس فِناءَ الدار ،
وعندما سيحمل الشعب السلاح

سيكنس ابن الملك باحة الهيكل .

وسخرت هذه القصائد بالمثقفين المنعزلين عن الشعب ، وانتقدت بعض الظواهر الاجتماعية كالزواج الباكر . وسرعان ما قام الى جانبها أدب مكتوب يدعمها وقد جعل همه الاستقلال والحرية والسعادة .

ولعل هذه الرباعية التي تنسب الى « لو توانغ كيت » إبان غزو قبائل « السونغ » عام ألف وستة وسبعين ، إنما تعبر عن التأكيد على حرمة الحدود الفيتنامية التي لاتنتهك ، كما لو أنها محفورة بحروف خالدة منيرة في كتاب السماء :

الجبال والأنهار في مملكة الجنوب
هي ملك شعب الجنوب .
حدودها موسومة ، بوضوح ، في كتاب السماء
فكيف تجرأون أيها القراصنة ، أيها الغزاة
على مهاجمتها ؟
خذوا حِذْرَكُمْ إذنْ
فستمزقون إرْباً إرْبا ...

ولكن أروع ما وصل إلينا من تلك العهود ، ما كتبه « نغوين تراي » الذي عاش بين عام ١٣٨٠ وعام ١٤٤٢ ، إذ كان هذا الشاعر إلى جانب ذلي لواء روح النضال الطويل الذي خاضه الشعب الفيتنامي ضد حكم « المينغ » الدامي .

وقامت نزاعات داخلية في قلب النظام الإقطاعي ، وغدا الفلاحون لا يستطيعون صبراً به وكانت الضرائب وأعمال السخرة ، والحروب اللا متناهية بين مختلف الأسر الاقطاعية ، كل ذلك يحمل الفلاحين على الثورات المتواصلة التي

توّجت بثورة « تاي‌سون » فقلبت جميع الأسر الاقطاعية الحاكمة ، وقضت على التدخل الأجنبي ، محققة ، دفعة واحدة ، وحدة الوطن واستقلاله .

ولكن الحكام الإقطاعيين لم يستسلموا الى مصيرهم ، بل استعان أحدهم وهو « نغوين آن » بالمغامرين الأجانب فتوصل الى استعادة العرش ، مؤسساً أسرة نغوين ، آخر أسرة مالكة في الفيتنام وأكثرها كرهاً من قبل الشعب ، واستهانة بحياته ومصالحه .

هذه الفترة التي تمتد من بداية القرن السابع عشر الى مطلع القرن التاسع عشر ، كانت من أكثر الفترات اضطراباً وقلقاً في تاريخ الفيتنام ؛ ولكنها كانت أيضاً فترة الأعمال الكلاسيكية الضخمة في الأدب الفيتنامي ، ففيها ارتسمت قضية المصير الانساني في إطار نظام متفسخ .

لقد كان التعبير عن كل ذلك يحمل في طياته أشباح الألم والتمرد. فالشاعرة « هو خوان هونغ » تثور على مصير المرأة في ظل النظام الاقطاعي ؛ وفي قصائدها الملتهبة تقذف احتقارها بعنف في وجه المجتمع المختار كما يزعمون ، وتعري الرياء الذي كان يكسو نظاماً اجتماعياً لا إنسانيا .

ولكن ، ألمع الأسماء في التاريخ الفيتنامي القديم هو ، بلا شك « نغوين دو » ، المتوفّى عام ١٨٢٠ . وتعتبر روايته الشعرية «قصة كيو» أروع إنتاجه، وفيها يحكي مالاقته فتاة جميلة موهوبة من أهوال في صراعها مع مايسميه الشاعر: قوى الأقدار ، وإنما هي قوى الشر والفساد في المجتمعات المتعفنة .

وتنتصب « كيو » في وجه هذه القوى الشريرة ، وتحاول بكل شجاعتها، وذكائها ، أن تصنع مصيرها . ولكن التعاسة والعار يلاحقانها ويشدانها إلى أسفل وهي إنما تحتفظ في قلبها بنار الحنين الخالد الى ذرى السعادة والنقاء . وتمتد الحياة

هكذا بالفتاة الجميلة الموهوبة إلى أن يلتقي بها البطل الاسطوري « تو - هاي »، فيحملها معه ، ثم لايلبث أن يقود انتفاضة واسعة تصمد ، منتصرة ، في وجه الجيوش الملكية . وتعرف الفتاة « كيو » أياماً رائعة . وتضيء سماءَ القصيدة كواكبُ وهاجة ، ويغني الشاعر شخصية البطل بأبياتٍ هي الغاية في الروعة والجمال .

لقد انطلق البطل كظل من حلم العدالة والسعادة الأكبر، الذي يهز ملايين الناس في حياتهم الشاقة المستحيلة . ولكنه ما لبث أن سقط في كمين، نصبته له الجيوش الملكية . ومن جديد ، خيّمَ الظلام الذي لاتعرف نهايته . أما الفتاة « كيو » فقد وجدت أخيراً أهلها وفتى أحلامها ، غير أن طعم المرارة لم يبرح حلقتها ولهاتها .

لقد طرح الشاعر قضية المصائر الانسانية دون أن يستطيع إيجاد حلٍّ لها . وعلى الفيتنام الجديد ايجاد هذا الحل . ولكن الشاعر عرف كيف يطرح القضية بجدة وعمق ، وعرف كيف ينفذ الى أعماق الإنسان بحب عظيم حتى ليجد القارىء فيها دوماً تعاليم جديدة .

وفي القسم الثاني من القرن التاسع عشر، جاء المستعمرون بمدافعهم - وببساطة استسلم البلاط الملكي ، وغدا أداة طيعة في يد الاحتلال الأجنبي - ولكنّ الشعب لم يستسلم أبداً ، وغدا تاريخ الفيتنام الجديد نضالاً متواصلاً في سبيل استعادة الاستقلال الوطني .

وهبَّ الأدب -هو الآخر- يقوم بدوره . فالاستعمار ، بطبيعته، لايمكن أن يبقى إلاّ بعد أن يثير في النفوس أحط العواطف والغرائز من جبن وخيانة

وغير ذلك . وكان على الأدب ، بالمقابل ، أن يدعو الى أنبل القيم الانسانية . وكأن النصر لايمكن إحرازه إلاّ بهذا الثمن .

كانت الأغاني الشعبية التي لايعرف اسم قائلها تنطلق في أوساط الشعب ممجدة الشرف والتضحية ، معرية فظائع الاستعمار . والى جانبها ارتفع صوت الكتاب ، وسمعنا الشاعر « نغوين - دين - شيو » يغني الفلاحين الذين اندفعوا تحت وابل من القنابل والرصاص لمقاتلة العدو ولا سلاح لهم إلاّ العصي .

ووجه كلٌّ من « فان - فان - تري » و « نغوين تيين كي » سياط النقد الجارحة الى الذين خانوا قضية الوطن ، أو تقاعسوا عن القيام بواجب النضال . وسخر « تو - خونغ » من طراز المعيشة الذي حمله الاستعمار ، وفضح الوصولية والانتهازية والوضاعة التي كانت تتعرّى بوقاحة في وضح النهار .

وفي مطلع هذا القرن اطلّع الوطنيون الفيتناميون على أفكار الثورة الفرنسية ، وأثرتْ فيهم هذه الأفكار ، حتى أنهم أسسوا في « هانوي » مدرسة لتعميق وعيها وإذاعتها ونشرها . وقد لاقى ذلك تجاوباً واسعاً في أرجاء البلاد .

وفي نفس الوقت ، كانت تنمو الحركة العمالية وتتوضح الأفكار الاشتراكية. وظهر « هوشي مين » ، على رأس حركة التحرير، في الثالث من شباط عام الف وتسعمئة وثلاثين . وبدأ عهد جديد من النضال . واندلعت الاضرابات والمظاهرات الجماهيرية ، وارتجف لها المستعمرون والاقطاعيون هلعاً ، ولم تستطع أعمال القمع الدامي أن تخنق الحركة التحريرية التي اتسعت حتى غدت الانتفاضة المظفرة في آب عام ١٩٤٥ . وكان الأدب يسهم طوال هذه الفترة النضالية

بتغذية حركة التحرر ، ناشراً الأفكار الاشتراكية بين الجماهير ، متعرضاً لشتى أنواع الاضطهاد .

وبانتصار ثورة ١٩٤٥ ، بدأت صفحة جديدة من تاريخ الفيتنام . فقد هب" الناس الجدد ، اولئك الذين قاسوا وعانوا من النظام القديم ، هبوا يمسكون بأيديهم مقاليد أمورهم ، وانضم" الكتاب والشعراء الذين شارك بعضهم في أعمال المقاومة السرية الى قضية الثورة بكل حماسة واندفاع .

وتوضحت امام عيون الجميع هذه الحقيقة البسيطة : يجب ، قبل كل شيء ، طرد العدو المستعمر ، لذلك كان كل واحد مستعداً لتحمل كل أنواع الحرمان ، ولمجابهة أية مخاطر . وفي سبيل ذلك قدم اكثر من" كاتب حياته .. ونتج عن كل ماتقدم أدب إنساني واقع نضالي .

وارتفعت أغاني « تو هو » تمجد جمال الوطن ، وروح التضحية لدى الجنود ، وبطولة الامهات والزوجات والأطفال ، والنضال من أجل الوحدة الوطنية ، وبناء الاشتراكية ، والصداقة بين الشعوب . وكانت أشعاره ، وسط الحرمان والأخطار ، تدعم الجهود والشجاعة الإنسانية .

كانت هذه القصائد حبيبة الى نفوس ملايين العمال ، ذلك لأن الشاعر ، على الرغم من ارتفاعه المتواصل نحو أعلى قمم الفكر المعاصر ، حافظ على حساسية شفافة ، وعرف كيف يستقي دوماً من ينابيع التراث الشعري الوطني التي لاتنضب .

ولا بد لنا أن نشير هنا الى المجموعة الشعرية التي كتبها بين ١٩٤٢ — ١٩٤٣ هوشي مين ، رئيس جمهورية فيتنام الديموقراطية ، وكان

إذ ذاك في سجن المستعمر . وقد اطلق على هذه المجموعة اسم « دفتر السجن » وفيها يتجلى الحب العميق للناس والحياة ، والصمود الذي لايتزعزع ، والحماس الثوري ، والصفاء والبساطة أيضاً . ولعلنا لوسألنا هوشي مين لأنكر كونه شاعراً ، ولحدثنا فقط بأنه نظم الشعر في فترات من حياته قضاها في السجن ولم يكن لديه إلا أن يسجل مشاعره في كلمات سائرة منغمة علّها تكونُ ذات أثر في الكفاح .

وظهرت في النثر أيضاً ، منذ عام ١٩٤٥ مؤلفات قيمة . ففي « حكايات الشمال العربي » يصف « تو - هواي » ، بشاعرية نادرة ، سحر الحياة الحرة في الجبال ، وطية الجبليين ، وشجاعتهم ووطنيتهم .

ويحكي لنا « فو - هوي - تام » في روايته « منطقة المناجم » عن ذلك النضال القاسي الذي خاضه عمال المناجم أثناء المقاومة . والجدير بالذكر أن الكاتب نفسه كان عامل منجم ومناضلاً . وقد شرع بكتابه على أساس كونه ملخصاً لتجاربه أثناء العمل ، ثم رأى أن من الأفضل أن يعيد صياغته في شكل رواية ، اذ يكون هكذا أعلق بالنفس ، واكثر تشويقاً لقراءته والإفادة منه .

وبعد اتفاقية جنيف ، عام ١٩٥٤ ، التي كرست التحرر النهائي لفيتنام الشمالية ، داعية الى انتخابات في عام ١٩٥٦ من أجل توحيد البلاد ، وجدالكتاب أنفسهم من جديد ضد القرصان الأمريكي . وكان عليهم أن يذهبوا الى حيث تدعوهم المعركة المستمرة .

وعلى جبهة القتال ، في الجنوب ، يقف اكثر من مليون جندي امريكي وعميل ، شاكي السلاح ، يزرعون الموت والدمار ، ولكن الثوار الفيتناميين

يلحقون بهم ، وعلى جبهتهم هذه ، أقسى الخسائر . وفي نار المعركة ايضاً تتفتح أسنى المواهب ويقرأها الشعب في أشعار « جيانغ نام » و « تان هاي » وفي مسرحيات « نغوين فو » وقصص « نغوين تي » وروايات « آن دوك » و « فان تو » ، وبعض هذه الأعمال قد تجاوز بعيداً حدود الفيتنام .

ان الشيء الذي يخلق قيمة هذه المؤلفات إنما هو ، بشكل اساسي ، كونها تعطي صوره أمينة للشعب الفيتنامي ، هذا الشعب المتعطش للاستقلال ، المستعد ، من أجل الحفاظ على استقلاله ، للقيام بأعظم التضحيات ؛ هذا الشعب الصامد ، الجبار في القتال ، والى ذلك نراه لا يتخلى في الوقت نفسه عن رقته ووداعته وحساسيته الرهيفة الداعية للاعجاب .

وفي كل ما ذكرنا يتوضح لنا لماذا استطاع هـذا الشعب أن ينتصر في « ديان بيان فو » ولماذا سيتحرر هذا الشعب ، لا محالة ، من المستعمرين الجدد وعملائهم من كل نوع ولون .

ولا نرى افضل لاختتام هذه المحاولة الدراسية الاولى من تقديم ألوان من الشعر الفيتنامي ، شعر الانسان الرائع ، نبدأها بمقاطع للانسان والمناضل والقائد « هو شي مين » الذي لم تنفصل لديه كل هذه الصفات عن صفة الشاعر ، ولم يقم باب سري يفصل بينها لديه :

عقد مؤتمرنا العسكري بين الضباب والماء .
وفي منتصف الليل عدنا
وقد امتلأ قاربنا ، حتى حافتيه ،
بضوء القمر .

على نافذتي دق القمر وسال :
وأخيراً ... هل قصيدتك جاهزة ؟
فأجبت : ان العمل العسكري قد أخذ كل وقتي
فالى الغد إذا سمحت !

* *

لم تستهوني الأشعار كثيراً في السابق
ولكن في السجن لم يكن لديّ ما أفعله
ولأجل تزجية الأيام الطويلة
– كي يشغلني ذلك عن الواقع المؤلم –
تراني أنظم الشعر في انتظار إطلالة الحرية .

*

جسدك وحده السجين
أما أفكارك فطليقة
وعليك ، كي تؤدي مهمتك الكبرى ،
أن تحتفظ بمعنوياتك ، عالية .

* *

مثل شياطين ضارية ، بأشداقها الجائعة
تتلقف القيود أرجلنا ، كلّ مساء ، وتبتلعها
وبينما يزدرد حلقها المنهوم القدم اليمنى
تَظلُّ القدم اليسرى وحدها ، تختاج في الخارج

* *

عند غروب الشمس ، غِبَّ انتهاء العشاء
تعلو ، من كل مكان ، الاغاني والموسيقى .
وسجن « تسنغ - سي » القاتم الحزين
يستحيل فجأة الى معهد عالٍ للفنون .

* *

ماذا بوسعنا أن نفعل عندما نكون في السجن .
لا شراب ولا ازهار ،
أمام هذه الليلة الرائعة
وفي ظل هذا الوقت البديع ..
ها هو الانسان يتأمل القمر بكل جماله
من النافذة ...
وها هو القمر يُطلُّ على الشاعر
عبر القضبان ..

* *

هُو خلفَ القضبان
وهي أمامَها ...
إنهما جِدُّ قريبين : شبر واحد
ومع ذلك فهما جدُّ بعيدين :
بُعْدَ السماء عن الأرض
العيون تُلقي خفيةً
ما لا تستطيع قوله الشفاه .

وقبل أن تلفظ كلمة واحدة

تنساب الدموع ملء الأجفان ...

يا للتعاسة !

• •

لدى صياح الديكة الاول ،

في الليل الذي ما زال داكنا

يطفو القمر من بين الجبال

تواكبه النجوم .

المسافرُ على الطريق ..

طريقِ الأسفارِ الطويلة ..

ورياحُ الخريف تهبُ جليدية

وتصفع الوجوه ..

وميض في المشرق أخذ يتحول الى فجر

ويكتسح، دفعة واحدة ،

بقايا الليل ..

ونسمات دافئة

تُسربِلُ السماء والأرض

ويجسُ الساتر فجأة

بتألق شعلةِ الشاعرية !

• •

رغم أن قدمي وذراعي

لا تجد سبيلاً للانطلاق

خاني في كل مكان ،
أسمع الأطيار وانشق عبير الازهار .
فهل بامكانهم أن يحرموني هذه السعادة
التي تجعل الطريق أقل كآبة
والانسان أقل عزلة ...

* *

ديك يصيح .

لستَ إلا طيراً عادياً
يُعلِنُ بصوته الجهوري إطلالة الشمس .
لدى صياحك الأول يستفيق شعب
وينضو عنه النعاس ...
وهذا العمل الذي تؤديه
ليس أبداً بالعمل العادي ...

* *

لخيرٌ أن نموتَ من أن نعيش أذِلة !
عندما تخفق في كل مكان أعلامُنا الحرة
فأية تعاسةٍ أن يجد المرء نفسه في أعماق زنزانة
لا يستطيع أن يخدم بلاده
على ساحة القتال .

* *

كان القدامى يتسلّون وهم يغنّون الطبيعة
الأنهار ، والجبال ، والدخان ، والثلج والأزهار ،
والقمر والرياح .

إن علينا أن نُسلّح بالفولاذ أشعارَ عصرِنا

ذلك لأنّ على الشعراء أيضاً

أن يعرفوا كيف يقاتلون ...

* *

هيّا ، على صوت النشيد ،

هيا أيها الشيوخ

هيا أيها الشباب

هيا أيها الجنود

هيا أيها المواطنون

هيا أيها الرجال

هيا أيها النساء ،

فليحمل البندقية مَنْ لديه بندقية ،

والسكين مَنْ لديه سكين ،

والفأس مَنْ لديه فأس ،

والمجرفة مَنْ لديه مجرفة

واذا صادفتم المستعمرين فاضربوا بقوة

إنهم ، على الأكثر ، بضعةُ عشراتٍ من الألوف ،

ونحن ملايين من الوطنيين ،

إنهم قادمون من البعيد

وقد أنهكهم السفر ،

ونحن أقوياء لمْ يُدركنا التعب ،

علينا أن نبيدهم ، أن نضيق عليهم الخناق ،
إنهم يسيرون الى حتفهم ، لا محالة ،
ونحن نكتسب دوماً قوة جديدة .
على رَجْع النشيد
يتقدم المحاربون بقوة متجددة ..
يرتفع المحاربون أعلى فأعلى
على رجع النشيد ...

* *

في الصباح أمضي الى شاطىء النهر
وفي المساء أعود الى المغاور
حساء الذرة وفوح الخيزران دوماً جاهزة .
وعلى الطاولة الحجرية القاسية أترجم تاريخ الحزب .

* *

الجدول يشدو صافياً مثل أغنية بعيدة ،
والقمر يعتنق الأشجار الهرمة ،
والظلُّ يمتدُّ على الازهار ،
والليلة جميلة مثل لوحة ،
ولكنَّ الانسان يسهر ابداً ...
يسهر الانسان لأنه يفكر بمحنة الوطن .

* *

في الرابع والعشرين من الشهر السادس ،

اصعد الى قمة هذا الجبل ،
أرفع رأسي وأشاهد الشمس الحمراء الى جانبي
وعلى المُنحَدَرِ الآخر
غصن شجرة ...

* *

الخامِسُ عشر من الشهر الأول
في ليلة بَدْرِيَةِ القمر
على نهر الربيع تتصل المياه الربيعية
بالسماء الربيعية .
وفي مكانٍ مُنْزَوٍ قَصِيّ ،
نتناقش في سير الحرب ،
وجلبابُ الضبابةِ يلفُّنا
ونعودُ في منتصف الليل
وضوءُ القمر يملأ القارب

* *

الى « بوبغ دوان » رئيس الجمعية الوطنية
بمناسبة الانتصارات المتوالية في ربيع ١٩٤٨

اقرأ .. ويأتي عصفور الجبل
فيحطّ على حافة النافذة ...
أُسجّلُ وثائق ، وتتمرأى الزهرةُ الربيعية ...
في الحروف .
رسائل النصر تتوالى دون انقطاع ،

مُجْهِدَةً خَيْلَ البريد ،

وأنـا أفكر بك وأرسل اليك

وهذه قصيدة أهداها الشاعر « توهو »، أحد كبار قادة النضال الفيتنامي ، والأدب الفيتنامي ، الى صديقٍ يذكر له فيها مكانَ الشاعر الحقيقي في الحياة:

أنت يامن تمضي ،

أنت يامن ارافقه

في هذه المرحلة من الطريق

أنت غالٍ عليّ بشكل مُضاعف

يارفيقي ، ياوطني !

في كل مكان ، بالطبع ،

تصعد الى الرأس نشوةُ الخطوط الاولى ،

ودوماً تحيا معنا أحلامُ القتال !

إنّ وتداً واحداً يصرع قرصاناً اميركياً

يساوي اليوم اكثر من الفِ صفحة أدبية .

إمضِ ! فالبلاد تنتظرك ...

ونحن هنا في المؤخرة

بينما الجبهة تتطلب المزيد !

وهذه قصيدة ثانية كتبها « توهو » في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٩٦٦ بعنوان (ربيع مبكر) :

جاء الربيعُ مبكراً بشكل مدهش .

وظل البرد شديداً ،

والسحَرُ مثقلاً بالضباب .
ولكنّ النحلة أخذت تدعو النحلة
وتتجه معها الى الازهار .
وعلى أرز الربيع تحوم ، مثل أضواء القمر ،
فراشات ذهبية ،
تحية أيُّها القلاق المُدَوَّمُ !
أترى كيف هو أخضر
هذا الأرز المرتّب بشكل جيد !
اهبط إذن لِتَسْعَجَبَ معي بنسائنا :
أليست أناملهن التي تغرس برشاقة
تبدو كما لو تداعب قيثارة ؟
أيها العِجْلُ الصغير ، لا تتحرك ،
وابق وديعاً طيعاً !
لا تقضم هذه الأزاهير
التي غرسناها في صفوف بديعة !
لقد أصلحنا السواقي والأقنية : فلا تصعد
على هذه السدود التي انتهينا الآن من إقامتها !
لمن هذه البرتقالات الحمر على هذه الشجرة ؟
إيه ، أنت ! أيها الفتى ،
ما ذا الخدين الورديين المستديرين ،
كم فويق في مدرستك الريفية ؟

كنتم تزقزقون كالعصافير الصغيرة
في بداية الفصل ...

أيها الجيلُ بجمال ألف ربيع قديم ،
أيتها المرآة الصافية التي تتألق
نقية من كل غبار ،
ها هو الربيع البسيط ، المضطرم ،
المزوّدُ بطاقة جديدة ،
الناعِمُ النضِر !
وأنا أرود بين الحقول ،
قلباً مستحاراً .
أوّه يابلادي ، من كان يستطيع الظن
بأنّ في كلٍّ من أغنيتك ،
في هذه الأسيجة من الخيزران ،
جرى الدم غزيراً ،
أحمرَ مثل أحلامنا !
ولم ينته الأمر . فالرصاص ينهمر دوماً ،
والقنابل تَنسف أثلام الحراثة ،
إنهم يريدون محوَ الخضرة من مزارع الرزّ
وتمزيقَ زرقة السماء
المخصصة لأسراب السنونو !
أيها القراصِنَةُ الأمريكيون ، ياقطاع الطرق ،

تعالوا إذن من هذه الناحية !
فمدافعنا ، هنا ، جاهزة ، طوع أيدينا .
وأرزنا سيواصل نموّه بشكل جيد ،
وأشجارنا ستواصل بَرْعَمَتَها
وسيتوالى علينا الربيع
مُسْكِراً الفراشات والنحل ...

يا جنيّات الربيع ، أيتها الجنيّات اللطيفة ،
أنتنّ تغنين الأناشيد المؤثرة
لدى مرور القوارب ؛
أو تغرسنَ الرزّ بأيدٍ رشيقة
والبندقية معقودة بمهارة ، على الظهر .
مَنْ يعلم لماذا كلُّ ذلك ؟
عندما تكون الأرض والسماء
على أهبة تغيير الفصل ،
عندما يغدو البرد أشدّ قسوة
وتجتاحنا الرياح والضباب ،
فهذا بشير بالربيع القادم .
وتتفتح الأزهار والأوراق ، تلقائياً ،
قبل دعوة الشمس
لماذا ندافع عن هذه الأرض ؟
فيتنام : إنّ هذين المقطعين نداء ،

جناحان يمدّان طيرانها البعيد
على ألوفِ وألوف الفراسخ ،
مجتازين المحيطات ، والثلوج المتراكمة .
وفي كثير من البلدان يظل الطقس بارداً جداً
ولا يرغب الربيع في القدوم ،
كما لا يهفو الجليد الى الذوبان .
لو أنّ بالامكان فقط أن نهدي بعض الأزهار ،
أزهارِ ربيعنا المبكر ،
الى أصدقائنا ، الأباعد أو الأقارب ،
لتلطيف قسوة البرد في ربوعهم ...
أما لدينا في الجنوب ... فهل هو دافىء .. هذا الربيع ؟
هناك ، منذ رأس السنة
يعمر البطيخ الناضج الحقول ..
وهذا الموكب ، الى أين يمضي بمثل هذه السرعة ؟
وفي عاصفةٍ من الغبار الأحمر
أوراقُ التمويه الحربي .. تُنْشد !

أما الشاعر « شي لان فين » فهو يدعونا الى هـذه « النزهة في الأحياء الفقيرة » :

أخرج الى الحيّ الفقير
بصحبة السماء الزرقاء .
ومن جانِبَيُّ عَربة القطار

أراه هنا يتبعني ، يتشبث بي ،
مثل سرب من العصافير الشادية .
لم تبق إلا مسافة قصيرة
وها أنا وجهاً لوجه مع السماء والارض .

أيها النهر الأحمر الحبيب !
أأنت نهر من عسل وطيوب ؟
تسيل بالحب ؛ وتغذي الدساكر والقرى
وعلى مومى النظر الذرة الصفراء
وبياض القطن المغري ،
ورزُّ الحبِّ الأخضر .
وتمتدُّ ضفتاك ، متوازيتين ،
زوجَيْنِ من العشاقِ المتقابلين ،
مثلنا نحن الاثنين ،
والنهر يجري وسط صفحتين
من كتاب مفتوح .
والنهر الأحمر هو الرباط الاحمر
الذي يجمعها

إنّ مياه النهر ليست كحولا
ومع ذلك فضفافه تغلي وتفور ،
وخدوده تصبغ بلون الأرجوان .

لقد شربت الضفتان كثيراً :
فيها تتأرجحان ذات اليمين وذات الشمال .
وأنا ماضٍ لملاقاة النهر ،
ماض لملاقاة الحياة ،
لملاقاةِ الانسان
وأخيراً .. هوذا أنت ياشعبي !

الحياة تتمخّضُ كما في مهد ...
والربيع النابض ، والصيف الخصيب
والخريف ذو الدم الحارّ ، والشتاء الأَلأق :
أربعة فصول حولها
والانسان في القلب .
أنا بين الناس ،
نار في النار ،
ثمرة بين الثار ،
أنا في قلب الشعب .
آلامي امحّتْ ،
ورنّتْ أغنيتي المرحة كالبلور

في قرية المنازل المئة
يطير مكوك الحياكة في ضحكات صا
وما إن يصيح الديك حتى يقعقع المكوك ،

في الصباح ، في المساء ، عند الظهيرة ،
تنبع أغنيته الشمس من النوم ،
وتطير الشمس على أثره .
وفي قرية « هو » يسحقون لحاء الأشجار
دون كلل ،
مثلما يسحق القمر
في قعر جرن الليل ،
ألقه الذهبي دون كلل .

أحب يديك الرشيقتين ،
نبعاً من حركة ،
أحب قدميك وإيقاعهما
الذي يحرك المهراس بمزيد من السرعة .
إيه ، أنت التي تصنع الورق ،
يا عاملتي ، إنك لشاعرة !
غداً تفتح السكين العاجية
ثمرة الكتاب الناضجة ،
صفحات عذارى ألاقة
معطرة بالشعر .
وبفضل ليلة العمل تلك ،
والوحل ، والعفن ،
تدعو يداك إلى الحياة

كل صفحة شعر
كل زهرة نَيْلُوفَرْ ،
كل ربيع .

في السماء الزرقاء تسطع الشمس ،
وتطير الكراكيّ ببطء على سطح البحيرة الكبيرة .
الريف بأسره في عيد .
والأشجار فتيات ،
ومزارع الرز تنشر ضفائرها الجديدة .
والشمس نبع ينحني ،
ومع الشعب سبائك من ذهب :
لوحة كلاسيكية حقيقية
من لوحات « تان نونغ » العظيم !
وفي اللوحة فلاحون وغارسات ،
قلبي هو الراعي
الذي يحرس بينهم
الأبقار الحريرية الملمس
والثيران المكتنزة .

حياة عمل : دود الحرير ينمو
وتزدهر غراس الرز
ويركض المكوك ، ويعلو المهراس ويهبط ،

ولا مكان مطلقاً للشكوى !
الشعب ، هل يتألم ؟
ألفُ عامٍ من العبودية ،
والبلاد ممزقة ،
والحياة ومصاعبُها :
إذا ما تألم الشعب ، فدموعُهُ
يَعفّر بها الثرى .
إنّ الألم عشب ضار
وليس رُزّاً .
إذا نبت فاقطعه كي لا ينتشر !
لقد استعاد الشعب مرحه ،
مرحه الذي ما يزال جديداً ،
والحياةُ هنا ، مثل عروس ،
والجمهوريةُ في نعومةِ أظفارها .
القهقهات ما زالت نادرة ،
ولكنّ الشعب عرف كيف يضحك
ليوقظ روح الوطن .
فرحته وضحكاتُهُ ما زالت فتية ،
ولكن الضَحِك مُخلّ يُقوّض عصور العبودية .
في كل مكان تسجع الطيور بسعادتها
وفي كل مكان تحني الضحكات أزاهيرها .

الحياةُ الديمقراطية

الفرحة الجمهورية

تزرعان فِضّتَها وذهبَهُما

على الطريق ..

حيث نَعبر ..

وهذه هي قصيدة طويلة للشاعر « هُويِ كان » كتبها أثناء زيارته لعاصمة كوبا « لاهافانا » في مطلع عام ١٩٦٨ ، وهي تحية من شعب مناضل الى شعب مناضل ، كلاهمـــا نهض في وجه الامبريالية بكل مافي الانسانية من شجاعة وبطولة :

إذا بعثت يا « والتْ ويتمان »

فأية تحية ستوجهها الى العالم

أية تحية توجهها الى الشعوب ؟

لقد حييتَ الأمم بصوتك الأخضر ،

بصوتك المعطر ، المرتعش « كأوراق العشب » ،

حييتَها بصوتِكَ الفتي ، المنبثق من صدرِكَ القوي ،

المنبثق من لِحيَتك المُزْهِرةِ كمرج رحيب .

حييتَها بصوتِكَ العظيم كديموقراطي ،

ولكن ، يا « والت ويتمان »

الآنَ غدت الشعوب المتحررة تُحبُّك

الآن عليك أن تحييها بصوت جديد .

لقد غدت الشعوب أكثر قوة وفتوة

من أي وقت مضى يا والت ويتمان !

غدت الشعوب تنمو على هذه الأرض
وجذورها أقوى من أي زمن فات .
الشعوب الضاربة الجذور في الأرض
تخلع الخضرة على العالم .
لقد غدت الشعوب تجَدّدُ رونق الأرض ؛
إنها تصنع أيضاً حرارةَ الناس
الصالحة لانبات الغِراس العظيمة .

الشعوب يا والت ويتمان !
إنها صِحّةُ العالم ،
حمرةُ الدم القاني
الأكثر تعرضاً لدفء الشمس ،
قوّةُ العالم الواقف على أعوامه العشرةِ آلاف ،
شبابُ العالم الذي أُعيد الى شبابه الخالد .
الشعوبُ هي مرج الكون الرحيب .
لقد شاهدتَ ، يا والت ويتمان ، الجبالَ والسهول ،
وسمعت الصوت العظيم للأنهار والبحار ،
وجلجل صوتك كأمواج المحيط ،
كالريح الكونية في الأعالي .

الآن تشاهد الشعوب ثورة
أكثر من جميع مياه العالم مجتمعة .

تسمع هذه الريح العاصفة تنطلق من الشعوب ،
هذه الريح العظيمة التي تهبُّ من ذُرى الانسان ،
هذه الريح العظيمة التي هي الانفاس الطبيعية
للامم التي استيقظت على البعث .
في هذا المناخ الجديد ، على كوكبنا ،
كان صدرك الرحب
سيزداد اتّساعاً .

لقد تقارب طولُ الارض وعرضها ،
وتقاربت الشعوب كي تصنعَ أرضاً أرحب
أرضاً اكثر شباباً
في عالَمٍ خلع الناسُ عليه الشباب .

يا والت ويتمان ، كنت تحبي البراكين الخامدين في الارض :
« فيزوف » و « إيتنا » ،
وكان بودّ رتيك لو أشعلنا تلك النيران
المضطرمة وفي أحشاء الكون
ولكن هل تحسُّ ، اليوم ، وتناك الهادئتان
ببراكين الشعوب ،
« بايتنا » و « فيزوف » الشعوب ،
البراكين التي التهبت في جميع القارات ،
البراكين السود ، والبراكين الصفر ،
ومثلها البراكين البيض .

ألا تحس أن الارض غدت أكثر دفئاً ؟
ألا تحس بأن محورها يدور أكثر سرعة
على إيقاع مسيراتنا الثورية ؟

كنت تحيي الاماكن التي ولدت فيها فكرة الالوهة .
ولكن كم كنت ستحيي اليوم باجلال
الاماكن التي تتأصل فيها فكرة الشعوب ،
كنت ستحيي باعتزاز أصالة الانسان ؛
وبأية حماسة وسعادة كانت لهاتك ولسانك
سيغنيان أغاني الحرية الجديدة ،
أغاني عميقة ، أغاني مثل مسيرة الارض نفسها ،
أغاني كانت في الماضي أسيرة في صدور العبيد
الذين أخذوا اليوم يتقدمون
بقوة لاتغلب ،
عندما تتقدم الاغاني للقاء الناس
عنيفة ، جذابة ،
أوه يا والت ويتمان ، إن فكرة الانسان
هي نفسها قد تجددت ألف مرة ؛
وثمة اكسيجين جديد يشتعل في الهواء
ودم جديد ينبض في العروق ،
والطينة الانسانية
قد جُبِلَت وأعيد جَبْلُها .

الانسانية الجديدة تنشد
وغناء الرجال يغدو فتياً
والفرحة والحماسة تلبسان الشباب ،
كما لو أن في هذه العواطف القديمة
تغييرات لم يجهر بها أي « دروين » .

عندما كنت تغني ثقتك بالانسان ،
عندما كنت تتحدث ، واثقاً ،
باسم بلادك ،
لم تكن تتصور ياوالت ويتمان ،
ماذا سيغدو بعض « اليانكي » الاموريكيين !
لم تكن تظن بأن خونة « للنكولن »
سيتكاثرون مثل الديدان ،
لم تكن تعتقد بأن صوتك العظيم
سيغدرون به الى هذا الحد ،
وأن نِعال « اليانكي » ستدوس نعومة أعشابك
وخضرتها ؛
ولكن الشعوب قد رفعت قبضتها يا والت ويتمان ،
الشعوب أخذت بيدها الحجر والمقلاع ،
الشعوب حملت البندقية .
الشعوب غدت براكين ،
دوائر رحبة من نيران

تحيط « باليانكي » وتحرقهم .

الشعوب يا « والت ويتمان » هي أفضل الازهار
وأفضل الثمار في هذه الارض الهرمة الفتية ،
الشعوب تنهض مثل حبات جيدة
وتصنع الحصاد المقبل الوفير .
وأنت يا « ويتمان » قد رقدت في هذه الارض
مثل حبة مباركة ،
أتسمع مسيرات الشعوب العظيمة
على ظهر الكون ،
من خط الاستواء الى القطب ،
ومن القطب الى خط الاستواء !
أتسمع الصفحات المدّاوة العظيمة ،
صفحات المحيطات الهادي ، والهندي ، والأطلسي ،
وهي تتقلبُ في الكتاب الجديد !
أبداً لم تكن أرضنا هكذا مشغولة
ومرحة في ركضها ؛
الشعوبُ أمس في المطابخ
– أتذكر لانكستون هوغ ! –
لم تكن تفعل إلا إعداد الوجبات للسادة
أما الشعوب الآن
فتستقرُ سادةً في بيت الكون العظيم .

إنها تُعيدُ ، جذرياً ، تنظيم هذه الحياة
المصنوعة ، في الماضي ، بشكل رديء .

الشعوب لم تخترع الحروب يا والت ويتمان ،
ولكنها ستخوض آخِرَ الحروب لِتَضَعَ لها نهاية .
الشعوب ستأخذ بأيديها كلَّ النار
التي أبدعها الانسان
لِتعيد صُنْعَ ألوانِ العالم ،
لتعيد صُنْعَ ألوانِ الحياة .

أليس صحيحاً ياوالت ويتمان
أنَّ الشعوب كانوا دوماً خزَّافين حاذقين ،
شعبُكَ أنت وشعبي أنا كذلك إن لم يكن اكثر .
إنهم سيعرفون كيف سيخترعون من جديد
الألوان الجميلةَ الضائعة

مبدعين ألواناً جديدة .
وستدور الأرض دوماً في أيدي الرجال
مثل مخروطة جبارة في يَدِ الخزَّاف .
وستصاغ الأرض نفسها ،
آنية جميلة ،
أجمل من جميع الأواني المنزلية .
وستسحب أيدي الرجال

قوارير الجمال من طين الكون .
الشعوب لم تخترع الحروب
ولكن الحروب غدت قضيتهم ياوالت ويتمان .
الشعوب اخترعت الصداقة ،
والصداقة ستبقى مثل بذرة صالحة
في قلب الشعوب .
الشعوب ستعيد تكوين الانسان
بشكل أجمل من جميع التماثيل
التي أبدعها الانسان

تحية الى الشعوب ، سيدة مصائرها !
لقد آن الأوان ياوالت ويتمان لاغناء لغاتنا .
لقد قلنا دوماً : الكون مشمس ، الطقس جميل ،
وعلينا أن نقول أيضاً : الكونُ كونُ الشعوب ،
فاليوم تُشرقِ الشعوبُ في طول الدنيا وعرضها .
إن عصرنا ليس على وشك الانتهاء
ياوالت ويتمان ،
مازال أمامه شوط مديد
لتدارُكِ الزمنِ الضائع ،
وتعويض مافات .
ستكون مسيراته الأخيرة
أجمل مسيرة على طريق البقاء

وأنت ياعصرنا ، الفاجع المثير ،
ستكون العصر ـ الشعب
كما كانت العصور السابقة
العصور ـ الملوك ،
أو العصور ـ السادة .

تحية الى الشعوب ،
الى قضاياهم ومطامحهم
إلى نضالاتهم وانتصاراتهم ،
تحية إلى أبطالهم الأموات والأحياء ،
صلاباً كالماس ،
أنقياء كحجر اليشم .

أيها الشعوب ،
لقد استغلّ صبرَكُم :
الملوكُ وبطانتهُم ،
والسادة وعملاؤهم المتجولون ،
وقد دقت ساعة الحساب ،
وستطالبون بحسابات دقيقة ،
أيها الشعوب .
ستمسكون من الآن فصاعداً دفتر الحياة الكبير .
لن يعودَ هناك مجال للغش ،
ولن تكونوا أيها الشعوب اسماً بلا مُسَمى

بل ستوقعون بأنفسكم
على صكِّ ولادتكم .

أوّه ، أية ريح من الخضرة والطراوة
تهبُّ من شطآنِ العالم !
إنكم مناخ روحي ، ومذاق لساني ،
أنتم سُلافُ السُلاف ،
ونواة الصمت الذي يلد الانغام الجديدة .
فلْنُنْشِدْ أيها الرفاق
أغنية الشعوبِ القديمة الجديدة ،
لِنُغَنِّ رُشْدَ الناسِ القديمَ الجديد ،
وتحيةً لكَ أنتَ أيضاً أيها الشعر
ياعَسَلَ الناسِ والشعوب !
فالخلية الانسانية الجبّارة
تخفق بها أجنحة قوية
وتمتلىء بِغُبارِ الطلْعِ وبالرحيق الجديدين .

ولئن كانت خلية الشعر الفيتنامي تزخر بالعسل البياني ، فلا شك أنَّ خلية النضال الفيتنامي ستمتلىء بالظفر الانساني ، وسيعتنق الانسانُ والبيان في بناءِ الحياة الجديدة السعيدة .

بكائية من مناطق الصحو!!

محمد أحمد العزب
– القاهرة

تَخَاصَرْنَا ..
وغنّينا ..
مواويلا .. مواويلا
كنَزْنا الليلَ أحضاناً .. ودغْدغةً .. وتقبيلا
دَفنّا حُزْنَنَا الموبوءَ خلفَ الشالِ والمعطف
وأرهقْنا المناديلا
شربْنا نخبَنا العشرين .. حتى الفجر .. لم نسْكر
رأينا صحْونا قطّاً يموء على موائدنا ..
ويأكل قطعة السُّكّر
وقهوتنا التي بردتْ شربْناها بلا سُكّر
تجاهلْناهُ ..

قلنا ربّما ننسى

فلم نسكر ..

ولم يسكر

تشدّقنا بألفاظٍ حفظناها ..

عن الحبّ ..

عن الموتِ ..

عن الجيل المنقّبِ في حناجره عن الصوتِ

عن العدد الذي يثوي وراء ممالك الأعداد

عن الأشباه والأضداد .

وحانت لفتةٌ أعلا ..

رأينا الصحو قنديلا ..

يعابثُ في ممرّات الرجوع ظلالنا العجفاء

تهاويلاً .. تهاويلا ..

تساقطنا رذاذاً في مقاعدنا .. وأشعلنا التراجيلا

فعلّق عينَهُ الصحوُ المغنّي في محاجرنا ..

وألقى خطبةً فينا :

ـ أنا ياسادتي .. لا سيف أحمله على كتفي .. ولستُ الفارسَ النذلا

أنا فرّغتُكمْ شكلاً .. وكم أبدعتُ لي شكلا

لأخرِ فكّكمْ عن التجوال فوق مسطّح الأشياء

وكنتُ أكون لا أبهى .. ولا أحلى

ولكني تفيأتُ السقوطَ وعدتُ أدراجي !!
ويسأل واحدٌ منكم :
لماذا جئتَ ؟
لا أهلاً ..
ولا سهلاً ..
وأرجو أن أباده لكم تحياتي ..
فلا أهلاً ..
ولا سهلاً ..
نزلتُ بيوتكم تنبحتْ كلابُ الليل في وجهي
ولذتُ بباب بيت الله جوعانا ..
فطاردني مع الظلمات شحاذٌ .. وشرطيٌّ
نزلتُ السوق وهو مدىً خرافيٌّ
فناجزني جباهُ مدينة الأشباح
وكنتُ أنا بغير سلاح
دخلتُ مدارس الحكمة ..
وهمتُ على الأفاريز الشتائيهْ ..
ونمتُ على يدي في الصيف .. في الغرفِ الترابيهْ .
وزرتُ مزارع الأحلام
فأوجع جدبُها الصخريُّ خلف الليل وجداني
وأوجع ضوءَ أجفاني
مرايا كُمْ تؤكد لي ..

بأنّي بينكم شيءٌ غريبُ الوجه .. واليد .. واللسانِ !!!

وصفقنا ..

وأطفأنا القناديلا ..

ولممنا معاطفنا ..

وجُزْنا الباب للظلمات أشباحاً مهازيلا

وقلنا :

غاب وجهُ الصحو

خلقناه شلواً في موائدنا

ونفضنا غباراً كان يحبو في سواعدنا

ومرّرنا عيوناً مثقلات الطرفُ كسلى في جرائدنا

وساعةَ نومنا قمنا فأوصدنا نوافذَ أُشرعتْ للرّيح

وهومنا ..

ولكنا .. وجدناه .. ينام على وسائدنا !!!

المسافر

الى روح صديقي علي درويش ،
الربيع الذي إستعجل السفر الى
الشواطىء البعيدة . .

سليمان العيسى

لاتسافرْ . ربيعكَ المنضورُ
بسمةٌ في شفاهنا ، وعطورُ
لاتسافرْ . لاالصبحُ في الجبهةِ
السمراءِ غنّى، ولااستراحَ النورُ
سكرتي لم تزل على شفَةَ الكأس ،
وشوقي اليـك وعـدٌ يطيرُ (١)

---

(١) كان الفقيد الشاب قد دعا صديقه الشاعر الى زيارته في الضيعة القريبة من اللاذقية ... قبيل وفاته بأيام .

بكّرَ الوردُ ياعليُّ الى القبر ،
يتيمٌ علــــى الرحيل العبيرُ
بكّرَ النجمُ في الأفول .. تمنّت
حرقةُ الدمع لو تأنّى البكورُ
أنا آتٍ .بالحب بالضحكة السمراء
بالشعر ، بالصّبــــا ، مغمورُ
ماحملــــتْ الرثاء دمعاً بعيني
بيننا موعــــدٌ أغَـرُّ نضيرُ
بيننا موعدٌ على التل ملهوفٌ ،
وليلٌ ، وضحةٌ ، وسرورُ
انا آتٍ الى لقاكَ ، ودعــــني
من رُكامٍ أصَمّ ليس يُحيرُ
أنفُضِ القبرَ نـعتنـق، تـضحكَ
القُربى بعينيك والهوى والدورُ
وطريقُ النهر القريبِ ، ودنيا
بخطانا ترابُهــــا مخمورُ
انا آتٍ .. بلهفتي ، بحنيــــني
بالأهازيج حيثُ كنّا نمورُ
باغانٍ .. مازالَ منهنّ ريشٌ
فوق هذي الرُبا بقلبي يدورُ

انا آتٍ . . ألا تُسلّمُ ؟ آتٍ
بعذابي . ومن عـذابي السعيرُ
ببقايا طفولتي .. تعرفُ الضيعةُ
أني من كرْمها معصورُ
مزّقِ الصمتَ .. موعدي معكَ
الليلة شعرٌ ، وسكرةٌ ،وحبورُ
أنفُضِ القبرِ . . ماأتيتُ لتلقا
ني على فرقة السنين القبورُ

* * *

ياصديقي ، والدربُ كلُّ حصاة
مقطعٌ من جراحنا وسطورُ
لاتسلني عن المواعيد ، والصيف ،
وشمس خلف الضلوع تنيرُ
لاتسلني عن الصّبا ، يومَ كانَ
الكرمُ لحناً في ثغرنا والعصيرُ
لاتسَلْ . . لو أُوشوشُ النسمةَ
الشقراء يمشي في بُردها سكّيرُ
لو لمستُ الجذورَ حولي ببيتٍ
لاستفاقت على الحنين الجذورُ
انا جارُ التلال ،والنهر ، مابُدّل
نبضٌ ، ولااستحال شعورُ

انا إيماءةُ العناقيد .. مانَقَرَ
إلا من بعدنا الشُحرورُ
انا ليلٌ مغرِّدٌ في فم النهر ،
وليلٌ على الهضاب قصيرُ
قطرةٌ لم تَزَلْ تُرفرفها العينُ
وعَذْبٌ ماءُ الوفاء غَيرُ
مِنْ هنا أشرق الهوى ياصديقي
وتَلقَّى إلهامَهُ مزمورُ
من هنا .. من شوارد البدرِ
الأسمرِ كنا ، ولم نزل ، نستعيرُ
من هنا ، ياعليُّ ، أطعمتُ عودي
وقصيدي لِيُبدعَ العصفورُ
من هنا .. من تلالكَ السمرِ
روّاني بكنزٍ من السماء غديرُ
لاتَسَلْني .. فما نسيتُ ؛ أيُنْسى
واحةَ العمرِ مُرهَقٌ ، وهجيرُ؟
في مُحيّاكَ كان لي الـسـفـ ـظلّ
تحتمي غُربتي به ، فيُجيرُ
لاتسلني.. ضربتُ في الأرض طفلاً
يتحدّى ، وزادُه الزمهريرُ

زادَه الجوعُ ، زادَه وطنٌ ضا
عَ ، وشعبٌ مُمزّقٌ ، مقهورُ
وحملنا صَليبَنا . . ما ركعنــا
ما لوَينا أن قهقهَ الدَّيجورُ
ما انحينــا . . ومزّقَ الشوكُ
عَيْنَينا ، وفي الريح حلْمنا مذرورُ
دنسَتْ خمرنا البغاثُ ، فموتي
عطَشاً ، لن تَلوّثي يا نُسورُ !

* * *

سامرَ التلّ ، يوشك القبرُ يخضرُّ
ويَندى على النداء الأثيرُ
لم تسافِرْ . . ما زلتَ في مقلة
الأصحاب حُبّاً تذوبُ فيه الستورُ
تمّحي في ابتسامةٍ لم تفارقْكَ ،
ووجهٍ هو الصباحُ الغريرُ
طاهرٍ كالصلاةِ ملءَ المناقيرِ
تؤدّى ، والمؤمنون الطيورُ
لم تزل في الشآمِ ، لا مِبْضَعَ
راعَ ، ولا جرحَ الضياء مريرُ
تتلوّى على العذاب ، ويخضلُّ
حناناً في وجهكَ التعبيرُ

وأُلاقيكَ كلَّ يومٍ ، ويثوي

خلفَ إشراقةِ السلامِ الزفيرُ

كم ... الصبا، ولألاتِ الذكرى،

حديثٌ على النزيف مثيرُ

مزَقٌ أنت من دمٍ ، ويغشّي

في مُحيّاك عالمٌ مسحورُ

تضحكُ الضيعةُ الحبيبةُ فيه

والفراديسُ حولنا والحورُ

فكأنا نحن الفريسةُ والداءُ ،

وأنت القلبُ الرحيمُ يزورُ

عالمٌ من طفولة ونقاء

ماأراه يَبلى ، وتَبلى الدهورُ

• • •

لاتلمْني .. اذا التمستُك في هُدْبي ،

فطرفي على الخيال قريرُ

لم أودّعْكَ .. ماطاقت دموعي

أن يُسمّى ليَ الوداعُ الأخيرُ

يرحلُ الموتُ ياصديقي ، ويبقى

موعدٌ بيننا أغرٌّ ، نضيرُ

ثلاث قصائد صعبة

ممدوح عدوان

— ١ —

في زمن الثأر الملقى في العتبه
في الزمن الموحل ،
تنمو الثرثرة العذبه
تصبح أستاراً تُسدَل فوق العار
كقميص فضفاض تلبسه العذراء الحبلى
لكن جنين الكلمات الصعبه
ينمو ..
يتمدد عبر الأستار
نتردد بين الرغبة والرهبه
نخشى أن تكبر في البطن فضيحه

أو تنفجر مباغتة كالدمل في الرقبه
أو تتسلل في غفلة عين
لانعرف أين نخبئها
فالكلمات الصعبة قصر سِنِمّار
تقتل ، بعد صناعتها ، الصانع
تقتل من يخفيها ..
من يحملها
من تُحْمَلُ له
وتمر كسيخٍ من نار
في اذن السامع
أو تبقى في وجه المنصت ندبه
والكلمات الصعبة أنى طمرت
تنبت قصباً ..
وتنوح إذا ما مرت فيه الريح
وتصب العار على وجه الساكت والمتلهي
والسامع
وتميت الميت ، فيصدأ
لايترك إرثاً لبنيه
لاتترك غير الجثة ملقاة في الشارع
فيضيف لمعروضات السوق بضائع
يشعل في السوق الجلبه

تصبب بالعار جباه السلعة والشاري

والبائع

* * *

في زمن الردة والتوابين

ينتشر مسيلمة في كل مكان

يختلط الشاهد بالقاضي بالقاتل

والكل يخيطون القمصان

وعلى كل قميص جاؤوا بدم كذب

ليقال : قميص من عثمان .

* * *

في هذي الضوضاء

نسمع صوتاً مثل صلاه

نسمعه ، مخنوقاً ، مثل بكاء :

ر يامهراً .. يجفل من وقع حوافره

يامهراً يجفله ظله

يامهراً يلقط حفرات الموت ،

ولم يعرف ، بعد ، السرج

أتظل مخاوفهم قيداً ؟

آه !! متى يأتي من يقفز فوقك

يلهب ظهرك حتى البحر

فلعل الخبب الجامح يوقظ إنساناً

يتبعه حتى ينفق
ولعلك ، يامهر ، تهيم على ماء البحر
حتى تغرق »

* * *

من أعماق الصحراء
جاء فتى حافي القدمين وعاري الصدر
جاء إلينا مشوياً في الرمضاء
طاف ببلدتنا يوماً فتعبأ بالقهر
داخ برحلته في الضوضاء
داخ برحلته بين البائع والشاري والسمسار
والدرب الضيق يودي للنار
حين رأى الجثة ملقاة في الشارع
ولدت في صدر البدوي الكلمه
والبدوي القادم من وهج الصحراء
لايحبس طفلاً بعد الشهر التاسع
خف كفهد كي يمتطي المهر
ومضى كالسهم ليعبر كل الساحات
أمسك بالكلمات الصعبة كي يلقيها في الضوضاء
لكن أشفق أن يلقيها
فابتلع الكلمات ومات
ومشى المهر وحيداً
حتى خاض النار

ـ ٢ ـ

ياصاحبي الذي أتقنت حتى الموت
عرفت درب الموت ،
شلت سيفه وعلمه
أردت ، ألف مرة ، لو أنني أصيح
لكنني بغير صوت
أنا الذي رُقِّمَ واحداً من الرعيه
ثم أضاع رقمه
أموت في الصباح دونما وصيه
ثم أساق في المساء كي أشيع الجنازه
وحدي القتيل في « صفّين »
فحينما تراجع الجميع كنت واقفاً
فصرت في المقدمه
وحينما تقدموا
ظللت واقفاً
داست عليّ خيلهم
لكي يصيغوا الملحمه
وحينما انتهت حروبهم
وعُقِدَت راياتنا للمنتصر
عاقبني علي من أجل الزبير
عاقبني من أجله معاوية

ثم دفعت بالزكاة للاثنين

- ٣ -

تشاجرت قبيلتان لاستقبال ضيف
تساقط الفرسان صرعى كي يرحبوا بالضيف
كي يذبحوا له قطيعاً من غنم
من أجله تقاتل الجميع
تقاتلوا
وكسروا لأجله السيوف
وأهرقوا الدماء في سبيل الضيف
لكنهم لم يعرفوا رأي القطيع
لم يعرفوا ماذا يريد الضيف
لم يعرفوا بأنه جاء ليستعير السيف

من مفكرة فدائي

عمر ابو سالم

– الأردن.

تلاقينا
وجزنا .. أبحر الظلمات
كتبنا قصة الشهداء ... فوق
مداخل الحجرات
تهجينا معا تاريخك الدامي ،
على العتبات
نسينا أننا غرباء من زمن ،
تولى .. موهن الخطوات
وأنا لم نعد نحيا على التذكار
وأن طريقنا عبر الصحارى بعدُ

موثقة مع الأسفار

وعودتنا اليها آهة تلقى .. وتعويذه ..

تفض بها الرياح الخضر ،

خلف تجاهل الأسرار

* * *

سبية رحلتي الأولى ..

أتيت أعانق الأهداب .. أكتحلُ

أشد على يديك .. يسوقني أمل

وأشرب صوت من غابوا ،

ومن رحلوا

وغيّبهم ظلام القبر من عشرين ،

في أرضك

وما عرفوا بأن الربيع .. آتية »

لتكتنف الذرى .. ومواسم الأعياد

وأنك سوف تلقين الرداء الأسود البالي ،

وتحتفلين بالميلاد

* * *

حملت اليك كل غدي ...

وألقيت انتظاري في رذاذ الصبح

أعواماً من المحن

عبرت النهر مرتقباً نداك الغض ،

علّ مياهه .. تسخو وتغسلني

وقلت أراك يا أرضي .. ويا وطني

كنبع الماء تدفق في بمراتي ،

وتمطرني .. بألف سؤال

عن الأغراب في المنفى .. عن الزمن

عن الوعد القديم .. بعودة الشمس

وعن ماضيّ .. عن أحزانيَ الأولى ،

عن الأمسِ

ليزهو فوق وحدتنا الحديث كعشبة ،

في الرمل .. مخضره

وتلمع في سماء الليل أنجمنا على ،

ارض .. لنا حره

* * *

لأنا كالعطاش على دروب القيظ كنا ،

نسأل الظلمات

غداً أكفنا لموانىء النعمى .. فيبخل ،

ومضها .. بالوهج بالشارات

لأنا قبل لم نبصر طريق الرفض والغضب

تناهت دوننا الاسماع !!.. لم تشفع ،

لنا الكلمات

حلمنا باصطخاب الموج .. بالخبز الذي يأتي ،

مع السغب

ودون البحر خضنا الرمل .. وهو يسفّ ،
ملء حلوقنا .. ويجف كالعارِ
قعدنا العمر نستجدي بكاء الليل ،
والبخور .. والصبح
ترقبناه .. عبر مدامع الاطفال ،
في الدار
وقلنا ربما العلّيق يزهر .. في صحارانا
وتطلع .. غابة الملح
وقلنا قد يبوح الصمت .. بالحكمه
وتنطق أرضنا .. الكلمـــه
تمد لنا بساط العودة الكبرى ،
وتطوينـــا
ولكنا نسينا تحت ساقية النشيج ،
المر .. ما قالت أغانينا

* * *

تبـــدّل حظكِ العاثر ....
تكسرت المسافات الخرافيه
تبدل موسم الأحزانِ .. أورق في دروبك ،
صيفُ هذا العام
وحان قطاف رحلتنا .. مع الأيام
برغم النأي .. غادر سيفنا غِمْدَه
وخطّ على ثراكِ .. وصيةَ التحرير ،
والعوده

ضرورة الفن (*)

تأليف : أرنست فيشر

عرض : محمد حافظ يعقوب

نشر كتاب « ضرورة الفن ، دراسة ماركسية » للكاتب التقدمي النمساوي « ارنست فيشر) سنة ١٩٥٩ ، باللغة الألمانية اولا ثم نشرت الطبعة الانجليزية التي قامت بترجمتها (انا بوستوك) سنة ١٩٦٣ ، عن دار بنغوين البريطانية . كما وصدرت عن دار الهلال بالقاهرة ترجمة عربية ناقصة للكتاب تحت اسم « الاشتراكية والفن » قام بها السيد (أسعد حليم) ، وفي هذه الترجمة العربية لم يقم المترجم الا بنقل الفصول الثلاثة الأول مغفلا الفصلين الاخيرين وهما : المضمون والشكل ، وضياع واكتشاف الحقيقة.

لقد عمل فيشر مراسلا صحفياً إثر حصوله على اجازة الفلسفة من جامعة غراتز ، ثم محرراً ، فعلقاً إذاعياً ، كما شغل لفترة من الزمن ، منصب وزير الثقافة في الوزارة الانتقالية بعد الحرب الثانية ، وانتخب عضواً في البرلمان ، ورئيساً لتحرير صحيفة يشترك في تمويلها ثلاثة احزاب ، الى ان تفرغ سنة ١٩٥٩ نهائياً للأدب .

ولفيشر مؤلفات كثيرة في الشعر والمسرحية والدراسة الادبية ، من أهمها مسرحية الأمير أوجين (بالاشتراك مع لويس آيزلر) ، ودراسة عن أدب كافكا ، ومشاكل الأدباء الشباب ، بالاضافة الى «ضرورة الفن» الذي يعتبر اشهرها واكثرها إثارة للاهتمام

(*) Ernst Fischer, The Necessity of Art « Marxist Arproach »
Translated By Anna Bostock, Penguin Books, 1963.

- ١ -

هل باستطاعتنا حصر وظيفة الفن في صيغة وحيدة ؟ أولا يقـوم الفن باشباع حاجات كثيرة ؟ أمن الممكن أن تتغير وظيفته بتغير المجتمع ؟ ثم أليس من الممكن ، بالتالي ، ولادة وظائف جديدة تحل محل القديمة ؟ بل ولماذا تطبع ملايين الكتب وترسم آلاف اللوحات ، وينظم الشعراء عشـرات الملايين من القصائد ؟ لماذا ينكب الفنانون والأدباء على ذلك ؟ ولم يقبل النـاس على أعمالهم ؟

فما السر ؟ ماهو الغريب ، المدهش ، الغامض في الفن ؟

كان (جان كو كتو) قد حدد ضرورة الفن وحاجة الانسـان اليه بجملة رائعة قال فيها : « الفن ضروري ، لكن اذا عرفتُ لماذا » . ان الفن « كضرورة حياتية » ، كأمر يضع الانسان قبالة العالم المحيط ، يعني أنـه ليس ضرورياً في المجتمعات المتطورة فحسب ، بل ويعني كذلك ، انـه ضروري في الماضي والحاضر ، وسيظل ضرورياً كذلك .

ان الانسان يريد أن يتجاوز ذاته . انه يريد ان يصبح انساناً « كاملاً » ، لأنه لايرضى بكونه فرداً فقط . انه يتمرد ضد العوائق والأطر التي تقيّده ضمن حياته الخاصة . ويطلب إلغاء العالم المحيط به وجعله ملكه .. انـه يريد تحويل الـ « أنا » الى الـ « نحن » ، ان يجعل فرديته « اجتماعية »

أمن الممكن ، على هذا الاساس ، تعريف الفن على أنـه طريق الفرد تجاه العالم بكليته « تعبير عن ارادته في ان يطابق ذاته مع ماليس هو ؟ » أو يكون هذا التعريف تعريفاً رومانسياً ؟

ويجيب فيشر على ذلك : إن الفن نفي لواقع الفنان من جهة ، واجتياز له من جهة اخرى . فالعمل الفني ، بالنسبة للفنان ، وعي كبير . انــه العملية العاطفية التي يظهر العمل الفني من خلالها كحقيقة مطلقة ، فلكي يصبح المرء فناناً ، عليه ان يكشف ، ويقبض على التجربة ، ويحولها الى ذكرى ، والذكرى الى تعبير ، والمادة « الموضوع » الى شكل . بيد ان عاطفة الفنان ، بالنسبة اليه ، ليست كل شيء . لأن عليه معرفة تجاربه وتمثيلها ، اتقان كل القواعد والاشكال والمهارات . والمعاناة ، بالاضافة الى الموهبة ، هي التي تخلق الفنان الحقيقي .

ان التناقضات الجدلية كامنة في صلب الفن . لقد أساء أرسطو فهم الفن ، لأنه اعتقد أن وظيفة الدراما تنحصر في تنقيــة العواطف ، في تهذيب الرعب والشفقة . ولذلك فان المتذوق يطابق ذاته مع أورستيس أو أوديبوس اللذين ضربا تخبطات القدر العمياء عرض الحائط . وعلى هذا تغدو المأساة (التراجيديا) هي مصدر المتعة الفنية الحقيقية . بينما قال (برتولت بريخت) عن هذه المتعة انها الصفة التحررية للفن : « على مسرحنا تدريب الناس وتعويدهم على متعة تغيير الواقع . ان واجبنا ليس في اسماع الناس كيف حرر بروميثيوس نفسه ، بل في تدريبهم على التمتع بتحريره . يجب ان يشعروا بكل الاشباعات والمسرّات التي تراود المبدع او المكتشف ، بكل العظمة التي يمتلىء بها شعور المتحرر » . إن بريخت يشير هنا ، إلى أن على الفن في مجتمع الصراع الطبقي أن يتجاوز الاخلاق التي تتطلبها التمايزات الاجتماعية . وبذلك لاتغدو المتعة الفنية حكراً لطبقة بذاتها ، بل خاصية الانسانية بأسرها . وبكلمات أخرى ، ان « الدراما اللاأرسطية » ، التي يدافع بريخت عنها ، هي بالضبط أن تثير الحضور وذلك بتحريك الصراع بين الشعور والباعث ، هذا الصراع المحتدم في العالم الرأسمالي . إن علينا في هذا "

Alienated [1] أن نقوم بعرض حقيقة المجتمع بطريقة فعالة ، بضوء جديد ، من خلال تألين مادة العمل الفني وشخصياته . ان الأنظمة الاجتماعية التي يعيش المرء في اطارها يجب ان تعالج بواسطة الدراما . ليس عن طريق مراقبتها فقط ، بل باثارة الانسان ، بأن نجعله يفكر طويلاً بالمسرحية حتى ينتهي الى التقييم . لأن علينا ان نوصله الى صرخة الاحتجاج التالية : « ماهذا ؟ انه لأمر شديد الغرابة ، انه لايصدق .. يجب ايقافه ! » . وهذا هو الذي يجعل المشاهد ، وهو عامل او او عاملة ، يأتي من اجله .

إن وظيفة الفن ، في المجتمع الطبقي ، في حرب داخلية مع نفسها ، وتختلف كثيراً عن وظيفتها الأصلية . ومع ذلك ، يظل شيء في الفن معبراً عن الحقيقة المحضة . وهذا مايجعلنا قادرين ، نحن الذين نعيش في القرن العشرين ، على ان ننسجم مع لوحات كهوف ماقبل التاريخ، او الاغاني المعزوفة في القدم. ولقد قام (كارل ماركس) بوصف البطولة بشكل فني في المجتمعات البدائية . ان ماركس يرى ان كل الفن نسبي مع الزمن ، ويمثل الانسانية بالكلية ، يمثل حاجات وأماني وضع انساني ما . بيد أن الفن ، في الوقت ذاته ، يسير بمحاذاة التقييدات ، ويخلق أيضاً في داخل اللحظة التاريخية ، لحظة انسانية ، معبراً عن التطوّر المأمول . اننا لانستطيع التعبير عن درجة الاستمرار في الصراع الطبقي ، بما فيها مراحل التغيير بالعنف والاستبداد الاجتماعي . ومثل العالم نفسه ، فان تاريخ النوع الانساني ليس فقط سلسلة من التناقضات غير المتواصلة، بل والمتواصلة أيضاً .

---

(١) ويترجمها بعضهم : المستلب ، الضائع ، المغترب : من الاستلاب، الضياع، الاغتراب الخ Altenation . بينما أقترح بعضهم تعريبها بألينة ، مؤلين ، تألين .

لذلك لم تكن من قبيل الصدفة ثورة ليسنغ وهيردر ضد الاقطاع والبلاط، كما وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن تكون اوربا الغربية في انكارها للانسانية وفي السمة الفيتيشية لمؤسساتها ، تعيد مجدداً فيتيشية ماقبل التاريخ وتنشىء الأساطير الزائفة التي تغطي مشاكلها التاريخية .

إن الفن يكتشف الاخلاق الانسانية كي يسام في صياغة أخلاق انسانية عامة . أن مفهوم الحرية ، مع انه نسبي ومتعلق بظروف وأهداف الطبقة أو أو النظام الاجتماعي ، فهو يتطور وينمو في فكرة مؤثرة . وبهذا المعنى ، فان سمات النوع الانساني موجودة، نسبياً ، في الفن . لقد صور هوميروس وانجيلوس وسوفوكليس ظروف مجتمع الرق ، ولذلك فهم خالدون مع الزمن . ومع انهم اكتشفوا عظمة الانسان ، فانهم قدموا شكلاً فنياً لصراعه وآلامه : بروميثيوس يجلب النار للأرض ، وأوديسيوس في دهشته وعودته ، ومصير تنالوس وأطفاله . وهكذا ، يمكننا أن نعتبر موضوع (انتيجونا) صراعاً من أجل حق اعطاء الشرف علاقة الدم . ان شخصية انتيجونا تتكرر اليوم كما كانت قديماً ، وما زالت كلماتها تقال حتى اليوم : « ان طبيعتي هي أن أتمتع بالحب ، لا بالبغض » .

ويمكن ان نضيف ، أن اصول الفن هي سحرية . إن هذا الطريق السحري للفن قد شق الطريق صوب اثارة العلاقات الاجتماعية ، بجعل الناس يتطلعون جهة المجتمعات المأمولة ، وبساعدتهم على فهم التغيير في الواقع الاجتماعي . لأن المجتمع الشديد التعقد يمكن التعبير عنه عن طريق الأسطورة .

إن الحقيقة (التي هي الوظيفة الاساسية للفن) بالنسبة لطبقة تتطلع الى تغيير العالم ، لاتكمن في جعلها السلوك غيبياً .. بل في إثارته واثارته .

- ٢

يستولي الإنسان على الطبيعة بتجاوزها . والعمـــل تجاوز الطبيعي والإنسان يحلم كذلك بصنع السحر في الطبيعة ، بأن يصبح قادراً على تغيير الموضوعات وإعطائها شكلاً جديداً بالوسائط السحرية . هذه هي المعادلة الحقيقية لما يعنيه العمل حقيقة : إن الإنسان كائن سحري .

لقـــد أصبح الإنسان كائناً إنسانياً بالاداة . فهو قدم نفسه أو أنتجها بصناعة أو انتاج الآلات . والسؤال المطروح هو مدى صحة العلاقة التالية : ليس ثمة من آلة بدون الإنسان ، كما وليس من إنسان بدون الآلة . فثمة اتصال لاينفصم بين الإنسان والآلة ، وحينما اكتشف الأداة ، أصبح لاشيء يستعصي ولا شيء يستحيل عليه . واكتسب قوة جديدة للسيطرة على الطبيعة ، وهـــذه القوة لا محدودة بالكلية . وفي هذا الاكتشاف يكمن جذر من الجذور السحرية ، من ثم ، للفن . لأن الإنسان احتل ، حين اكتشف الأداة ، مكان الطبيعة ، ولم يعد بانتظار ما تفضله ، بل أخذ يجعلها طوع أمره أكثر فأكثر .

ثم أخـــذت الأداة تفقد تماثلها للموضوعات الطبيعية ، واحتلت دور الطبيعة ، وأخذ المدلول العقلي يغدو أكثر وأكثر أهمية ، عندما أخذ الإنسان يرتقي الى مراحل أعلى في التطوّر .

ثم يبحث المؤلف في اللغة كأصل آخر من أصول الفن ، ويعتبر أن دورها لايقتصر على كونها أداة للتعبير ، بقدر ماهي وسيلة للاتصال . إن الإنسان القديم كان ينظر الى العالم المحيط على أنه عالم متداخل غير محدد المعالم .. عالم غامض غموضاً كلياً . بيد أنه بواسطة اللغة ، أخذت نظرته الى العالم تكتسب شكلاً جديداً أكثر تنظيماً . يقول هيردر في كتابه الممتاز عن اللغـــة وأصلها

« تطور الإنسان في العالم : ما أعجب الخضم الذي يحدق به ! بأي مؤثر رائع تعلم أن يميز ! أن يميز إحساساته المختلفة ! وأن يثق بالحواس التي عرفها ! » .
لقد استطاع هيردر أن يرى كيف ولد العالم : فانسان ما قبل التاريخ أبعد العالم اللا محدود بكليته ، ثم تعلم أن يعزل ، يميز ، وأن ينتقي الأكثر أهمية لحياته الخاصة من خلال العديد من الأشياء الطبيعية الشديدة التعقيد .

بيد أنه بدون العمل – أي بدون الممارسة في استخدام الأدوات – لم يكن بمقدور الإنسان تنمية اللغة كتقليد للطبيعة وكنظام من الدلالات التي تنوب عن الطاقات والأشياء . وأخذت هذه المفاهيم ، والتعابير ، أخذت هذه الدلالات تبرز مكونة اللغة .

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى دراسة « المحاكاة » : خلق الإنسان أداة ثانية تماثل الأولى ، وبهذا خلق أداة أخرى تحاكيها فائدة وأهمية . هذه المحاكاة ، منحت الإنسان قوة على الأشياء . إن الحجر الذي لم يكن مفيداً من قبل أخذ يكتسب قيمة لأنه من الممكن أن يحاكي الأداة ويخدم بالتالي أغراض الإنسان. وكما يبدو ، فان ثمة أمراً سحرياً في عملية « المحاكاة » هـذه . ذلك لأنها تحقق السيادة على الطبيعة . وكما يبدو أيضاً ، فان في خوف الإنسان من الطبيعة ، بالإضافة الى قدرته على السيطرة عليها ، الجوهر العميق لأصل كل فن .

وباستطاعتنا القول ، بالتالي ، إن أول صانع أداة ، عندما أعطى شكلاً جديداً لحجر كي يحقق أغراض الإنسان ، كان أول فنان على الإطلاق . وأن أول من أطلق اسماً هو فنان عظيم لأنـه فرز شيئاً من لا محدودية الطبيعة وجعله مميزاً .

ثم يسهب المؤلف في بحث « الفن في المجتمع الطبقي » . فيرى أنه مع

انفصال الكائنات البشرية عن الطبيعة بصورة مطردة (أي بتجاوز المرحلة السحرية) ، ومع فقدان القبيلة لوحدتها كنتيجة لتقسيم العمل والملكية ، يضطرب الانسجام الذي كان قائماً بين الإنسان والعالم الخارجي ، الذي ينشأ عنه مختلف أنواع الهستيريا والجنون . ويزداد التناقض إبان الأزمات ويأخذ شكلاً حاداً . فمع ازدياد الفوارق الاجتماعية ، تظهر الجماعة في بعض الأحيان ، وكأنها خرجت عن طورها . ويبرز عدد من الأفراد الذين يتلقون الإلهام أو الوحي (الكهنة والسحرة) ، تتلخص مهمتهم في إعادة الانسجام المفقود مع العالم الخارجي .

إن الطبقات ، داخل المجتمع الطبقي ، تسعى لتجنيد الفن ، وهو الصوت القوي لكل الجماعة ، لخدمة أغراضها الخاصة . فيظهر أبولو الممجد للأوضاع القائمة والممثل للملك وحاشيته ، ويبرز في مقابلها ثورة ديونيسيوس المحتج على التمايز وتقسيم المجتمع . وانتقل دور الساحر ، في المجتمع الطبقي ، من ممثل للجماعة ، الى دور الفنان أو الكاهن . ثم لتتسع الشقة بين الفن والكهنوت ، حتى انفصلا في نهاية الأمر . ومع ذلك ، فقد ظل الفنان يعتبر ممثلاً لكل المجتمع ومعبراً عنه .

لقد كان ثمن التطور الاجتماعي باهظاً للغاية،إذ أدى تقسيم العمل والطبقات الى اغتراب الإنسان لا عن الطبيعة فقط ، بل وعن نفسه أيضاً . لأن النظام المعقد يؤدي أيضاً الى تهشيم العلاقات الإنسانية . إن معنى زيادة الثروة الاجتماعية هو ، غالباً ، إفقار الإنسان .

بيد أن تطور التعبير في الفن ، أثناء تطور المجتمع الطبقي ، لم يقتصر على الإشادة بالوحدة المفقودة . بل نجد أيضاً أن الفنان كان يؤكد الأوضاع المستجدة

ويشيد « بالآلهة الجديدة » ، كما نلاحظ لدى أسخيلوس . ثم أخذت الفردية تمتد حتى شملت الفن بعد أن تناولت الكائنات البشرية .

أما في العالم الرأسمالي ، فان صفات الأشياء الموضوعة رهن التبادل ، لم تعـــد تحمل قيمة بالنسبة للتاجر ، بعكس القيمة التي للأرض بالنسبة للمالك الإقطاعي على اعتبارها امتداداً له .. بل باعتبارها أكثر بقاء وثباتاً منه . ولهـذا السبب أصبحت السلعة شيئاً غريباً ، ونتج عن غزو النقود للعالم الإقطاعي المحافظ أن غدت العلاقات بين الناس أقل إنسانية ، وضعفت الرابطة بينهم .

لقـــد أدخلت التجارة الذاتية في الأدب . فغدت للتجربة الفردية أهمية تفوق تاريخ القبيلة وملاحمها البطولية وتاقها . ويعتبر نشيد الإنشاد تعبيراً عن هذه المرحلة بالذات .

وصحيح أن الفردية ظهرت من الجماعية ، لكن المضمون الجوهري للشخصية كان جماعياً . لقد كان التمزق في ذات الإنسان شديداً . ولم يكن لغير الفن مهمة تأدية وتحقيق الوحدة والتكامل . إن الفن يهيء الإنسان ويمكنه من فهم الواقع ، وهو يزيد من عزمه على جعله أكثر إنسانية .

فالفن نفسه جزء من الواقع الاجتماعي . ولأن المجتمع بحاجة الى الفنان، فانه يطالبه أيضاً بوعي وظيفته .

ولقد حدث ، في كل الحالات تقريباً التي يكون المجتمع فيها إبان تحول اجتماعي ، أن كان الفنان يلتزم إما بالطبقة السائدة وإما بالطبقة الصاعدة الثورية . وكان الفن خلال عمله ، وهو في حالات الوهم السحري ، يتنبأ بمولد جماعة جديدة . وكذلك كان لابد للانحلال في مجتمع في طريقه نحو الانهيار ، من أن ينعكس في الفن . لأن الفن لابد أن يعبر عن العالم المتغير .. وأن يساعده في تغيره ..

- ٣ -

لقد وجد الإنسان نفسه في المرحلة الرأسمالية في وضع شديد الغرابة . فبعد أن كان الملك ميداس يحوّل كل مايسه الى ذهب ، صارت الرأسمالية تحول كل شيء الى سلعة . لقد فككت الرأسمالية العالم القديم تفكيكاً ليس له مثيل، مما قضى بشكل مباشر على العلاقات الإنسانية ، وأدى الى ازدياد اغتراب الإنسان عن واقعه الاجتماعي ، وعن نفسه . وتحول الفنان الى منتج للسلعة ، والفن الى سلعة تخضع لقوانين المنافسة ، وأضحى الفنان « حراً » الى حد الشعور بالوحدة القاتلة .. وأصبح الفن مهنة نصف رومانسية ــ نصف تجارية . لقد نظرت الرأسمالية الى الفن ، خلال فترة طويلة من الزمن ، على أنه شيء تافه وغريب . ولم يعد بمقدور الفنان الحقيقي الدفاع عن هذا العالم الذي ينظر الى الأشياء نظرة مادية صرف . لذلك برزت الرومانسية كحركة احتجاج على البورجوازية ، على عالم « الآمال الضائعة » .. وعلى التفاهة التي ألقت بثقلها في عالم الربح والعمل .

لقد كانت الرومانسيّة ــ في حدود وعي البورجوازية الصغيرة ــ التعبير الأكمل عن تناقضات المجتمع الرأسمالي ، لعدم قدرتها على فهم قوانين التطور الاجتماعي وجدليته،ولم يكن من الممكن بالنسبة للفن ،أمام الموقف الرومانتيكي ، إلا أن يكون متلجلجاً مضطرباً . وكلما ازدادت نظرة السادة نحو إعلاء قدر الانتاج المادي والتناءعليه ، كلما زاد الفنانون من تصميمهم على الكشف عن جوهر الانسان،وعلى البحث عن قلبه . لقد كان الشعور الرومانسي يمتاز بالقلق وبالشعور بالغربة وبالعزلة ، وبالتوق إلى الوحدة الاجتماعية الكاملة ، بالاضافة إلى زيادة احتفائه بتميز الفرد وبالذاتية البايرونية .

لقد دفعت الرومانسية الى تطوير مفهوم الفن الشعبي . لأنها ، إبان بحثها عن إعادة وحدة الجماعة ، هتفت « بالشعب » إماماً لها ، لكن باعتباره وحدة عضوية متجانسة !

بينما تعتبر حركة « الفن للفن » والتي يعد بودلير ممثلها العظيم ، امتداداً للرومانسية إثر انتصار الرأسمالية وزوال مرحلتها الثورية . وكانت ولادتها مرافقة لنشوء الحركة الواقعية التي تهدف الى نقد عيوب المجتمع وأخطائه الكامنة . لقد كانت حركة « الفن للفن » ، حركة احتجاجية أيضاً على الموقف النفعي الكئيب للرأسمالية . إنها نشأت من تصميم الفنان على ألا ينتج سلعاً ، في عالم غدا كل ما فيه سلعة تباع .

أما الانطباعية ، فهي حركة احتجاج كذلك ، أنشأها رجال موهوبون ضد غرور الفن الأكاديمي وكبريائه الفارغ .. ضد الفن الأكاديمي باتباعيته الجوفاء ، وضد تقليده السخيف للأشكال القديمة التي أصبحت بالية وفقدت مضمونها منذ زمن بعيد ، لأن هـذا النوع من الفن كان مشكلاً من العبارات الخاوية والعواطف الكاذبة المستمدة من التراث الكلاسيكي وعصر النهضة .

كانت المدرسة « الطبيعية » أشد سخطاً واحتجاجاً من الانطباعية ، لكنها كانت تعاني كذلك كثيراً من التناقض الداخلي . ان صفتي النزاهة والموضوعية في عرض الواقع اتسمتا بكراهية لاحدود لها للمجتمع الرأسمالي بأسره ، بكل طبقاته ، وبخيبة أمل مفجعة حيال الكائنات الانسانية . فبانعدام الأمل وباليأس الذي عانت منه مدام بوفاري ، وبفشلها أمام بيئتها القاسية ، يمكننا اعتبار هذه الرواية العظيمة ممثلاً بشكل رائع للمدرسة الطبيعية . بيد أن الموقف الطبيعي ، بإبهامه وتعميته ، يمكن أن يؤدي بالأديب ، إما الى الخطو قدماً نحو الاشتراكية ،

وإما الى التراجع الى الخلف صوب الجبرية والرمزية والغموض . لأن الطبيعة تجد نفسها ، في لحظة من اللحظات ، مجبرة على الاختيار . فلقد اختار (اميل زولا) الموقف الأول ، التقدمي ، بينما ارتد (إبسن) الى الرمزية والابهام ، و (ستروندبرج) الى الرومانسية الجديدة .

لقد كان لاتجاه المدرسة الطبيعية جهة الرمزية أسباب اجتماعية ، لكنها كانت أيضاً أسباباً خاصة بالطبيعة نفسها . لأن كل حركات السخط في النظام الرأسمالي تتعرض للحظة حاسمة ، وذلك عندما تتحرك الجماهير وتبدأ الطبقات في العمل . ولقد كانت المدرسة الطبيعية تعتقد أنها تعرض المجتمع « بموضوعية علمية كاملة » ، ولكنها كانت موضوعية خادعة . لأنها لم تكن تنظر الى الظروف على أنها متغيّرة ومتبدلة .. لم تتطلع اليها في سياق حركتها العامة ، بل كانت ترى فيها حاضراً ثابتاً لايزول .

ثم ظهرت الى الوجود المدرسة التي اسميها المؤلف بمدرسة « الأينة » ، التي يعتبر فرانتز كافكا ممثلها الأول ، والتي انطلقت من أن العلاقات الانسانية في المجتمع الصناعي تتحول الى علاقات بين الأشياء ، وذلك بازدياد تقسيم العمل والتخصص . ان الانسان يتشتت حين يعمل ، وتنقسم كينونتـــه الى أجزاء صغيرة ، الى صفر متناه في الدقة أمام آلة ضخمة . وكنتيجة لدوره الذي اصبح صغيراً وجزئياً ، تصبح نظرة الانسان الى الأشياء محدودة ، وتزداد شخصيته تضاؤلاً وتأليناً . وتصبح معاناته ، لا من ازدياد انطماس شخصيته فقط ، بـــل وكذلك من ازدياد العلاقات الاجتماعية ، إبهاماً وغموضاً . وفي « المحاكمة » لكافكا نجد ذلك كأبرز مايكون . ان الشعور بالعجز الذي ينتاب السيد « ك » حيال الاتهام الذي يواجهه دون أن يعرف جريته أو ماهية اتهامه ، هو امتداد لسيطرة

حكم اسرة هابسبورغ ، امتداد شمل قارات بأسرها . وهكذا تتألق السلطة في المجتمع الصناعي الحديث وتبتعد عن المواطن العادي . ان الشعور بالغربة ، بالألينة ، هو سمة فن وأدب القرن العشرين . نجده لدى كافكا ولدى السرياليين والتجريديين وأصحاب الرواية المضادة والمسرحية المضادة ،لدى (صمويل بيكيت) وا شعار البيتنكس الأمريكان .

وكنتيجة للشعور بالغربة الشاملة نشأت المدرسة العدميــة التي لاتلزم صاحبها بموقف ما !! و كذلك نشأت المدرسة اللا انسانية كنتيجة للازديادالكبير في الابتعاد عن الانسان .

أما المدرسة « الميثولوجية » فهي من سمات المرحلة المتأخرة للرأسمالية ، لازدياد الشعور بالألينة ، وللغموض والابهام اللذين يكتنفان العالم الخارجي ، إنها نوع من الاحتجاج ضد العالم الذي أصبح غريباً عن خالقه الانسان ،وموضع تساؤل مستمر من قبله ، بتبديد التفاهة . أن التعمية واللجوء الى الاسطورة من الأساليب التي يحتمي بها البعض حتى يتجنبوا اتخاذ موقف ما من القضايا الأساسية . ان (كولون ويلسون) ،القليل الذكاء ، إذ يطالب في كتابه المتحذلق « اللامنتمي » الفنان بعدم الانتماء او الالتزام ، كأنه يطلب منه أن يغدو حرباء تافهة تزحف من لاشيء الى لاشيء . و كذلك كان موقف مدرسة « الفرار من المجتمع » .

لقد بلغت ألينة الانسان عن بيئته وعن نفسه الذروة في الرأسمالية ، وأدركت الشخصية الانسانية أن حريتها التي اكتسبتها إثر العصور الوسطى قد سلبت منها . لقد اتجه الفنان شطر الواقعية في الفن . لكن الموقف الواقعي ، مع الأسف ، كان مبهمــاً ومطاطاً . ويعتبره بعضهم موقفاً ، أي اعترافاً بالواقع الموضوعي ، وأحياناً أخرى منهجاً أو طريقة . وكثيراً مايضيع الحد الذي يفصل بين التعريفين

إن جوركي هو الذي صاغ عبارة « الواقعية الاشتراكية » في مقابل « الواقعية الانتقادية » . غير أن العبارة كثيراً ما أسيء فهمها واستخدامها . وثمة مدرستان كبيرتان داخل العالم الاشتراكي اليوم لكلٍّ منهما فهم خاص لـ« الواقعية الاشتراكية » . فثمة اختلاف بين إهرنبورغ وجيراسيموف ، وبين مجلات شيوعيي إيطاليا وفرنسا وبولونيا وبين المجلات الألمانية الديموقراطية وثمة اتجاه سائد تزداد قوته يقول : إن الأفكار الفنية لايمكن تكوينها باصدار قانون ، وإنما تتطوّر خلال عملية الانتاج . إن الفن الجديد لايتولد من النظريات بل من الأعمال الفنية ذاتها . فلقد استمد أرسطو نظريته في الجمال من كتابات هوميروس وهزيود وأسخيلوس وسوفوكل ، وليس العكس .

أما إذا نظرنا إلى الواقعية الاشتراكية على أنها طريقة في التعبير ، فإننا سنتساءل على الفور : طريقة ومنهج من ؟ جوركي أم بريخت ؟ ماياكوفسكي أم إيلوار ؟ ماكارنكو أم أراجون ؟ شولوخوف أم أوكيزي ؟ إن هذا الموقف الاشتراكي ناتج من التزام الفنان بوجهة النظر التاريخية للطبقات الصاعدة ، ومن تبنيه للمجتمع الاشتراكي . ومهما حاول الكاتب أن يكون موضوعياً وحيادياً في عرضه للواقع « كما هو » ، فان ذلك لايمكن إنجازه إلا بصورة تقريبية للغاية . لقد كان كافكا مدركاً لذلك تماماً . بيد أن الفنان بامكانه الوصول إلى موضوعية واسعة ، وذلك عن طريق الوقوف إلى جانب الطبقات العاملة وحركات التحرر الوطني . أي بواسطة تبني وجهة نظر الاشتراكية غير المتزمتة . إن الواقعية الاشتراكية تنظر إلى المستقبل . وعنصر التنبؤ وتوقع المستقبل هذا ، الذي كان كثيراً ما يندد به باسم الواقعية ، قد اكتسب قوة كبيرة في الفن الاشتراكي . صحيح أن الفنان يلتزم موقف الطبقات العاملة ، لكنه ليس بملزم على الدفاع في

إنتاجه عن أي قرار أو موقف يتخـــذه أي حزب أو شخص يمثل الطبقات العاملة . . إنه يندمج في المجتمع الاشتراكي الصاعد برمته ، في حين أن كتاب الرأسمالية وفنانيها لم يكن أمامهم إلا الانفصال عن عالمهم .

إن الفن الاشتراكي ،على العكس من الفن الرأسمالي ،يطلب التجديد الدائم في أساليب التعبير ، فنحن بحاجة مستمرة إلى طرق جديدة للتعبير من أجل تصوير الحقائق المستجدة. ومن الجمود والتزمت القول أن على الفن الاشتراكي الالتزام بأشكال الفن البورجوازي كأشكال عصر النهضة والواقعية الروسية في القرن التاسع عشر . ولماذا لايتعلم الفن الاشتراكي من النحت المصري ، أو من الفن القوطي مثلاً ؟ يقول بريخت :

إذا كنت ماتزال حياً فلا تقل البتة كلا
فما هو مؤكد ليس مؤكداً
إن الأشياء لاتبقى على حالها
والمستحيل صار حقيقة قبل انقضاء النهار .

– ٤ –

إن مسألة التفاعل بين المضمون والشكل كانت وما زالت المسألة الحيوية .. ولكن ليس في الفن فقط . وهي المسألة المطروحة منذ أرسطو ؛ الذي يعتبر أول من طرح هذه المسألة ، وأكثر من أخطأ في معالجتها ، وكذلك أكثر من امتد تأثيره فيها ، إذ ظل منهجه سائداً حتى العصر الحاضر ، مروراً بتوما الأكويني وعصر النهضة .

ويبحث المؤلف بالتفصيل تطور النظرة إلى الشكل المتغـــير للبلورات Crystals . فلأن البلورات تتغير أشكالها وتتحول من حالة إلى حالة ، من الكم إلى الكيف ، ومن الكيف إلى الكم ، وبالعكس ،

فانّ البلّورات سلطت الضوء على حالات التحول في الطبيعة ، على طبيعة التغير الثاوية في الأشياء .. في أشكال الأشياء . ثم يدرس الزخرفة ، فيرى أن دورها في الفن يماثل دور البلورات في الطبيعة . ويعتبر المصريون أول من استخدم فن الزخرفة ، كما لاحظ الإنكليزي المتخصص في الدراسات المصرية (السير فليندرس بيتري) .

ومن الممكن ملاحظة العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون ،ببساطة، إذا ماركزنا الانتباه على البلورات ، و ن ماندعوه بالشكل هو تجمع كيفي متعلق بحالة توازن فيها المادة . فالشكل هو إعلان عن حالة من التوازن تحدث في زمن معطى .

وتظل مشكلة الشكل والمضمون مشكلة إجتماعية في الحقيقة . فمضمون المجتمع هو في إنتاج وإعادة إنتاج الحياة ، مطوراً إياها من الحقيقة البسيطة – وهي أن الناس يجب أن يتغذوا ويلبسوا ويشربوا ويلبسوا ويقطنوا المنازل – إلى المرحلة الراهنة ، الاكثر تعقيداً ، للأدوات الحديثة ، والآلات والقوى المنتجة : إنها المساهمة الحازمة من قبل العالم الخارجي في المادة الناشئة وفي الحاجات الروحية للإنسان . إن الأشكال التي تحدث فيها هذه العملية تختلف اختلافاً كبيراً . فهي تتلاءم مع القوى الإنتاجية ، لفترة ، ثم لتتعارض معها مجدداً ، فتصبح بالية وقديمة .. أي يجب أن تأخذ شكلاً آخر جديداً ، وهكذا . كما لاحظ ماركس في « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » وأنجلز في رسالتيه إلى « جوزيف بلوك » و « سبار كنبرغ » .

ولقد حاول فيشر طويلاً أن يبرهن على أن مشكلة المضمـــون والشكل ليست في الحقيقة وقفاً على الفن فقط ، وعلى أن الموضوعة التي تعتبر الشكل

سابقاً على المضمون ليست إلا رد فعل شكلي لموقف كلّ طبقة سائدة عندما يصبح مركزها مضطرباً ومهدداً .

ثم يميز بين أمرين أساسيين في العمل الفني ، والأدبي بخاصة ، أي بين المعنى Meaning والموضوع Subject ، إذ يرى أن المعنى يختلف عن الموضوع اختلافاً تاماً ، على الرغم من ترابطهما الوثيق ، . إن المعنى لايظهر في تفاصيل العمل وأجزائه ،بل فيه ككل ؛ بينما يظل الموضوع لوحده عاجزاً عن تقرير شكل العمل دون المضمون ، او المعنى العام . إن فاوست (غوته) يختلف الاختلاف كله عن فاوست (مارلو) أو(ليسنغ) أو(توماس مان) أو(آيزلر) مثلاً . فمع أن الموضوع واحد ، فإن الأعمال نفسها مختلفة لاختلاف معناها العام .

وهكذا ينتهي بنا المؤلف إلى تقرير الحقيقة التالية : والمضمون والشكل ، أو المعنى والشكل ، مترابطان ترابطاً جدلياً . . . . .

إذ ليس من المهم أن نرى ما أعطانا إياه مضمون عمـــل فني ما ، لكن كيف قُدم هذا المضمون : بأي درجة من الوعي الاجتماعي والفردي .

ثم يدرس كيف ، يتغير معنى الموضوع ، من خلال دراسته لتطور الشكل في الشعر والقصة والموسيقى . ليقرر أن مشكلة الشكل في الموسيقى ، تختلف عنها في الفنون الأخرى ، لأنها تظل مشكلة مفتوحة غير قابلة للحل النهائي . ولأنها كذلك ، فإن مستقبل التطور الموسيقي سوف يتحدد بدرجة الوعي ، بشكل المعيشة المتجدد ، بذكاء جديد .. وباختيار جديد للطبقة العاملة .

- ٥ -

أما في الفصل الأخير المعنون بـ « ضياع واكتشاف الحقيقة » ، فان المؤلف يتناول بالدراسة الكلمة التي أطلقها أولاً الرومانسي الألماني لودفيج تيك : « ضياع الحقيقة » .

لقد برزت مشكلة (الضياع) هذه في العصر الرومانسي على ضوء شعور الانسان بأنه غريب عن العالم ، وبأنه شديد البعد عنه ، إبان سيطرة الرأسمالية وتحويلها كل شيء إلى سلعة ، إلى شيء مادي . ثم يبحث على ضوئها الاتجاهات الجديدة في الأدب ، مثل أدب كافكا ، والاتجاه الذي يمثله (روب غرييه) في روايتيه « الخالدة » و « العام المنصرم في مارينباد » ، وهو الاتجـــاه المسمى بالرواية المضادة . فيرى أنها (كافكا وغرييه) يبحثان عن « الحقيقة » من خلال تراكم الزيف والضياع الانساني ــ بين الأنقاض الانسانية المتهشمة تحت وطأة النظام الاجتماعي ذاته ، وليس الآلة .

ويدرس ، من ثم ، تحت عنوان « الفن والجماهير » آثار الأدب والفن الاشتراكيين في اكتشاف حقائق اجتماعية جديدة ضاعت وشوهت بالأسلوب البيروقراطي . ويرى ، بحق ، أن المهمة الأساسية للأدب والفن الاشتراكيين المعاصرين – اللذين يمثلان الحقيقـــة الجديدة وفق الأساليب الجديدة المنسجمة معها – مرتبطة بمشكلة أخرى راهنة : دخول ملايين الناس في الحياة الثقافية .

ففي الاتجاه الاشتراكي ، بعد تلمس آثار العنصر السياسي لكثير من العمال ، الذين أخذوا يتذوقون حلاوة الحياة الرضية ، فقد بدأ نوع « من التعارض الأولي بين الأفكار الفنية للثقافة التقدمية وبين العديد من أفراد الطبقة العاملة » .

بل وستتسع الهوة بين « التقدم الاجتماعي وبين ما هو جديد في الفن » اتساعاً كبيراً ، « لأن الجيل الجديد لايريد الفن تقدمياً فحسب ، بل جديداً بكل معنى الكلمة ، لأنه يبحث عن نمط جديد في الحياة ، أي نمط يلائم العصر .
وعلى هذا فقد بدأ نوع من الصراع بين القديم والحديث في المحيط الثقافي ، بين دعوة الجيل الجديد ، وبين مايدعوه الجيل القديم « التعبير عن الإنسان البسيط » الذي أصبح وجوده يزداد ندرة في عالمنا الصناعي الحديث .

ثم يختتم فيشر كتابه بالفقرة التالية : « ان الانسان ، الذي أصبح انساناً عبر العمل ، الذي نشأ عن المملكة الحيوانية ، كمتحول من الطبيعي الى الصنعي ، والذي أصبح من ثمة ساحراً .. ان هذا الانسان الخالق للحقيقة ، سوف يظل الساحر الأكبر ، سيظل بروميثيوس الذي يجلب النار من السماء الى الأرض .. سيظل أورفيوس الذي يستعبد الأرض بموسيقاه .

بل ان الفن لن يموت .. حتى ولو شارفت الانسانية على الموت » !!

الكترا (١)

د. فؤاد شعبان

يجدر بنا قبل البدء في تقدير هذا العمل الفني ان ننظر الى قصة المسرحية وجوها الفكري والفني في القرن الخامس قبل الميلاد، حيث قدمت على المدرج الكبير امام معبد ديونيس في أثينا .

الكترا هي ابنة آغا ممنون القائد اليوناني العظيم ، وكليتمنسترا زوجته التي قتلته بعدعودته من حصار طروادة. والسبب الذي احتجت به كليتمنسترا لقتل زوجها ذو شقين: الاول انه ضحى بابنتها افيجنيا للآلهة للتكفير

---

(١) قدمت هذه المسرحية على مسرح القباني بدمشق .

عن خطيئة ارتكبها ، والثاني أنه جاء من حصار طرواده باسيرته كاساندرا، الاميرة الطروادية التي عشقها ، واصبحت تنافس زوجته عليه هذان هما السببان الظاهران لقتل كليتمنسترا لزوجها (ولو أن سوفوكليس اكتفى في مسرحيته باظهار السبب الأول فقط) .أما السبب الرئيسي - الذي يثير عليها غضب اولادها ومعظم ابناء مدينة آرغوس - فهو أنها أثناء غياب آغا ممنون وقعت في غرام ايجست ، وحينما عاد زوجها قتلاه معاً لكي ينعما بعلاقتهما وبصولجان آغا ممنون . بعد مقتل ابيها عهدت الكترا بأخيها الصغير اورست الى مربية للمحافظة عليه وإخفائه عن اعين امها وعشيقها وقاية له منها ، لأنه أول من يقع عليه واجب الانتقام لأبيه حين يكبر .

وتمضي السنون والكترا تعيش تعيسة حزينة في منزل امها التي تشترك مع ايجست في معاملة الكترا معاملة قاسية جداً . وبعد أعوام يعود اورست وفي نيته الانتقام لأبيه . ولكنه لا يستطيع ان ينفذ مآربه الا بعد ان يكاف مربيه باعلام اهل القصر بأنه مات،وان وفداً من مدينة مجاورة سيحضر رماد اورست لأمه . يزيد هذا الخبر من حزن الكترا و كآبتها ويجعلها في النهاية تنوي الانتقام بنفسها لمقتل أبيها . ولكن اورست يحضر،وتتعرف عليه اخته الكترا ، ثم ينفذ رغبتها بالانتقام بعد أن يوهما كليتمنسترا وايجست بأن الشخص الغريب هو مندوب من المدينة المجاورة أتى برماد أورست .

هذه - بشكل مبسط جداً - هي حوادث القصة التي تستندعليها المسرحية . اما المسرحية نفسها فتبدأ حوادثها عند عودة اورست وتستغرق يوماً واحداً طبقاً لقواعد المسرحية عند اليونان . كما ان حوادثها تتتابع في مكان واحد هو المدخل الى القصر الملكي في مدينة آرغوس .

وحين كتب سوفوكليس مسرحية «الكترا» لم يكن يفترض أن الجمهور كان على علم تام بما سردناه من وقائع قصة المسرحية وحسب ، بل كان ايضاً يعتمد في التأثير على الجمهور على إلمام ذلك الجمهور بكل مايحيط بالمسرحية من تأثيرات دينية وفكرية واجتماعية . فالكاتب المسرحي اليوناني لم يكتب عن قصص وهمية من وحي خياله (كما هو الحال في معظم قصص المسرحية الحديثة) ، بل كان ينتقي قصة مشهورة من التاريخ اليوناني او من الاساطير المعروفة لدى عامة الشعب . وهكذا فان العمل المسرحي كان يعتمد بالدرجة الاولى على طريقة حبك الكاتب لحوادث قصة معروفة وعلى طريقة تقديم الشخصيات في قالب درامي مؤثر ، واخيراً على الجمع بين الحوادث والشخصيات معاً وربطها (الحوادث من جهة والشخصيات من جهة اخرى) بعجلة القدر بحيث يتابع الجمهور تطور هذه الحوادث والشخصيات متماشية مع دوران تلك العجلة نحو نهاية محتومة .

ومن ناحية اخرى، فان المسرحية تعتمد أيضاً على الجو الفكري والديني والاجتماعي الذي يدعم تصرف الآلهة والشخصيات وتطور الحوادث ، والذي يخيم على الجمهور والمسرح ، لاسيما وأن المسرح في ذلك العهد كان جزء من العبادة لدى أهل اليونان .

ففي أثينا كما في غيرها من المدن اليونانية كان المسرح الرئيسي يقام أمام معبد أحد الآلهة وكانت المسرحيات تقدم هناك أثناء الاحتفال بيوم ذلك الاله . ويطول الحديث عن التأثيرات الدينية والاجتماعية على المسرحية بصورة عامة ، فلنحصر الدراسة بالجو الديني المسيطر على مسرحية « الكترا » بالذات .

السؤال الطبيعي الذي يرد نتيجة قيام الكترا بالتحريض على قتل امها وعلى قيام أورست بالفعل بقتل امه هو : أي قانون ديني أو بشري يجيز قتل الأم ؟

والجواب الطبيعي – الذي تمليه على الانسان الحديث إنسانيته وكل ماورثه من تقاليد دينية واجتماعية – هو أنه لايوجد قانون كهذا. إذن لماذا نرى عواطف الجمهور منساقة نحو اورست والكترا اللذين ينويان قتل أمهما، بينما لايوجد من يأسف لمقتل كليتمنسترا؟ وفي هذا السؤال يكمن الصراع الدرامي الذي يتخلل المسرحية من أولها الى آخرها. كما أن الإجابة على هذا السؤال تكون كاملة حين يعلم المرء شيئاً مما تقره الأعراف الدينية والاجتماعية اليونانية بهذا الشأن.

تقضي الكترا اياماً طوالاً تندب مقتل أبيها، وعلى الأخص تأسف لعدم قيام أحد للأخذ بالثأر لتلك الجريمة الشنيعة. ثم تعلل نفسها بالأمل المشرق بأن أخاها اورست سيعود ويثأر لمقتل الأب. فهل الكترا – هذه الانسانة النواحة الندابة – متعطشة لسفك الدم الى هذا الحد؟ ولماذا تنتظر أخاها كل هذه المدة ولا تقدم للأخذ بالثأر بنفسها؟ إن لهذا البكاء المستمر والتعطش للدم أسباباً عديدة ليست شخصية فقط. فالقتل عند قدماء اليونان جريمة يعاقب عليها القانون الالهي بالقتل، والاله أبولون نفسه يطالب أقرب الرجال نسباً الى الشخص المقتول بأن يثأر له، وأورست هو ابن آغا ممنون، لذا يتوجب عليه أن يثأر لمقتل أبيه. لهذا السبب بالذات قامت الكترا بعد مقتل أبيها، بتهريب اورست مع مربيه الى حيث لايستطيع عشيق أمهما ان يقضي عليه. إذن فالكترا حين تحث أورست على العودة والثأر تحاول فقط أن تنفذ أوامر الإله أبولون، وهي تشعر بأن كل تأخير يزيد غضب الإله. وبالإضافة الى هذا الدافع فالكترا ايضاً تشعر ببشاعة الجريمة لأنها تعيش في جو تلك الجريمة كل يوم وكل ساعة حين تشاهد أمها وعشيقها ينعمان بنتيجة مااقترفت أيديهما. زد على ذلك المعاملة القاسية والحرمان اللذان تلاقيهما من أمها وعشيقها. فهذه الأسباب إذن تحث الكترا، ومن ثم اورست، على الثأر لمقتل أبيهما.

ولكن السؤال مازال قائماً : كيف يمكن التوفيق بين وجاهة هذه الاسباب وبين قتل الأم ؟ ألا تحمي القوانين الالهية الأم من ابنها ؟ أو ، بشكل أوضح ، ألا تمنع تلك القوانين الابن والابنة من سفك دم من جاءت بهما الى هذه الحياة ؟ وماذا عن القوانين الاجتماعية ؟ ألا تحمي هذه أيضاً الأم من القتل ؟

والجواب على هذا السؤال يكمن في العلاقات الدينية بين الانسان اليوناني وآلهته ، وبينه وبين أخيه الانسان . فالآلهة التي كان يعبدها اليونانيون في عصر سوفوكليس هي من السلالة الثالثة للآلهة اليونانية القديمة . وهذه السلالة من الآلهة التي كانت تسمى بالأولمبية (نسبة الى جبل أولمبس) والتي يرأسها « زيوس » ، قبضت على مقاليد الحكم بعد أن ثارت على السلالة الثانية وأطاحت بها . وكانت هذه بدورها قد أطاحت بحكم السلالة الأولى التي كانت ترتبط بالطبيعة ، إذ أن أم هذه السلالة هي الآلهة « جيا » أي الأرض . وبعد انقراض سلطة هذه السلالة بقيت لها وظيفة اجتماعية هي الحفاظ على العلاقات العائلية ، وبخاصة منها علاقة الإنسان بأمه وقدسية هذه العلاقة . وكان كل تعريض لهذه العلاقة للخطر تعاقبه « الأرض » بواسطة عميلاتها وبناتها الـ « فيوري » ، وهي التي يسميها الدكتور طه حسين بالشياطين في ترجمته للمسرحية . إذن فقدسية الأم كانت تحميها العلاقات الدينية المنقرضة بالإضافة الى التقاليد الاجتماعية . وبالتالي فقتل اورست لأمه كان إطاعة للإله ابولون (وهو أحد أفراد السلالة الثالثة الحاكمة) وأخذ بالثأر لجريمة قتل ، بينما هو في نفس الوقت مخالفة لتعاليم الدين المنقرض والعلاقات الاجتماعية . وبالطبع فان أوامر الاله ابولون تغلب على الأخرى . ولكن نتيجة هذا التضارب في الأحكام تبقى ظاهرة في الصراع النفسي عند شخصيتي الكترا واورست في المسرحية .

كان جمهور المسرح اليوناني في عصر سوفوكليس على علم بقصة المسرحية وما سبقها من حوادث ، وكان أيضاً ملماً بتلك العلاقات الدينية والاجتماعية التي تؤثر تأثيراً بالغاً على الصراع الدرامي الذي يحدث في المسرحية . ولكن ماذا عن « الكترا » في دمشق ، وماذا عن الجمهور الذي شاهد المسرحيـــة على مسرح القباني ؟

لا بد هنا من بدء دراسة هذا الحدث المسرحي بنقطة غير فنية وهي أن الجمهور – شأنه في ذلك شأن أي جمهور عصري – كان خـــالي الذهن من الجو الفكري والديني للمسرحية ، كما أنه لم يعلم شيئاً عن قصة المسرحية مسبقاً . لذلك حبذا لو أن منتجي المسرحية زودوا المتفرجين حين دخولهم قاعة العرض بخلاصة مختصرة عن حوادث قصة المسرحية وما سبقها من حوادث . ومع أن هذه المعلومات لم تكن لتضع الجمهور في كامل الجو الفكري المناسب ، لكنها على الأقل تضعهم في الصورة من حيث الحوافز التي تكمن وراء الحوادث والشخصيات .

أما من حيث الاخراج الفني والتمثيل فقد جاء هذا العمل المسرحي موفقاً ومشجعاً على متابعة المحاولات لاخراج تمثيليات كلاسيكية أخرى ، سيما وأن الممثلات والممثلين هنا كانوا جميعاً من الهواة الذين يقفون على خشبة المسرح لأول مرة . فمسرحية « الكترا » ليست بالمسرحية السهلة الاخراج ، خاصة إذا أراد القائمون على العمل المحافظة على أصالة العمل المسرحي وتقريبه قدر الامكان من عصره ومكانه . هذا على ما يبدو كان هدف المخرج الدكتور رفيق الصبان ، فهل وفق في ذلك ؟ لقد حاول أن يبقي المسرحيـــة على بساطتها الأصلية من حيث الديكور واللباس والإنارة والموسيقى والكورس والحركات التعبيرية للشخصيات

وخاصة الكورس . ففي أيام سوفوكليس كان المسرح يمثل مكاناً واحداً فقط، دون أن يحاول الكاتب المسرحي نقل احداث المسرحية من مكان الى آخر . وهكذا فان المكان الذي حدثت فيه قصة المسرحيـــة كان المدخل الى قصر كليتمنسترا وايجست في مدينة آرغوس . وهذا ما شاهدناه فعلاً على المسرح : المدخل الى القصر مع بضعة أعمدة وجدار وبضع درجات ، دون اللجوء الى ما نراه على المسارح الحديثة من زينة وتأثيرات مختلفة .

كما أن الإنارة جاءت بسيطة ،مثلها مثل النور الطبيعي الذي كان يستفاد منه أثناء تمثيل المسرحيات اليونانية القديمة على المسرح المكشوف . فقد بدأت حوادث المسرحية مع بزوغ الصبح بنوره الباهت وانتهت مع نهاية النهار، وعبرت الإنارة البسيطة المستعملة عن مرور يوم واحد في حياة مدينة آرغوس . ولعبت الملابس دوراً مشابهـــاً إذ كان معظمها بسيطاً يعكس وضع مرتديه ، خاصة ملابس الكترا والكورس (اللهم إلا من هفوة بسيطة وهي أن الأحذية التي ارتدتها بعض نساء الكورس كانت حديثة الصنع والزي . وربما كان الأمل أن يغطي اللباس الطويل هذه الأحذية ولكنها ظهرت في كثير من الأحيان) . أما كليتمنسترا و كروسيتميس فقد ظهرتا بملابس مزخرفة براقـــة تدل على عدم اكتراثهما بمصيبة الكترا .

أما الموسيقى الخلفية فقد نجحت من حيث الآلات المستعملة بتصوير تطور حدة الحوادث واحساس الشخصيات ، ولو أنها كانت في بعض الأحيان تطغى على الحوار وتضفي على المسرحية جواً حماسياً مصطنعاً لاأظنه يماثل الغرض الذي استعملت من أجله الموسيقى في المسرح اليوناني .

نأتي الآن الى الدور الذي لعبه الكورس في المسرحية . فللكورس في

المسرح اليوناني وظيفتان أساسيتان ، أولاهمـــا أن يقوم أعضاؤه بصورة جماعية بالتعليق على الاحداث وإظهار رد فعل مماثل لرد فعل المشاهدين . والوظيفة الثانية — والتي كثيراً ما رافقت الأولى — كانت إضفاء جو من التسلية الفنية على شكل رقص وغناء على إيقاع الموسيقى . وكانت هذه التسلية تأتي بين فصول المسرحية ، إذ أن المسرح اليوناني لم يستعمل الستارة . وثمة وظيفة ثالثـــة قدمها الكورس للمسرحية ، وهي قيام قائد الفرقة بدور ممثل إضافي يشترك في الحوار مع بقية الممثلين . وكان عدد أفراد الكورس في عهد سوفوكليس خمس عشرة فرداً . أما في مسرحية « الكترا » فالكورس مؤلف من نساء مدينة آرغوس ، وهذا شيء طبيعي إذ أن الشخصية الرئيسية في المسرحية هي امرأة ونساء مدينتها يشعرون بما تعانيه من عذاب جسمي وعقلي ، كما أنهم يعطفون عليها ويسدون اليها النصح والمعونة .

وإذا نظرنا الى الكورس الذي شارك في التمثيل على مسرح القباني لفت نظرنا أولاً أنه كان مؤلفاً من احدى عشرة فتاة ، ربما بسبب ضيق المسرح أو عدم توفر المشتركين . وقد عمد المخرج الى توزيع الحوار مع بقية شخصيات المسرحية ، كما جرت العادة في المسرح اليوناني . كما أن الكورس قام بحركات إيقاعية جماعية ، التي وإن كانت معبرة عن اللحظات الحاسمة في المسرحية ، جاءت مقتبسة من النظريات الحديثة في التمثيل لا من الأصل اليوناني . وملاحظة أخيرة عن الكورس وهي أن نصف أعضائه تقريباً لم ينسجمن مع الدور الموكول اليهن ، ربما بسبب حداثة سن الطالبات [1] اللواتي اشتركن في التمثيل . وفيما عدا ذلك فان الكورس أدى مساعدة قيمة في إظهار مشاعر الجمهور نحو احداث المسرحية ونحو خطب الكترا بصورة خاصة .

---

(١) طالبات معهد الحرية بدمشق .

ونأتي أخيراً الى الشخصيات الرئيسية في المسرحية : الكترا ، اورست ، كليتمنسترا ، و كروستميس . فمن قائل بأن دور الكترا الرائع الذي مثلته الآنسة جبور ،طغى على بقية الأدوار وجعلها ثانوية جداً . وفي هذا غبن لجهود بقية الممثلين والممثلات . فما من شك بان الآنسة (جبور) كانت منسجمة تماماً مع دورها وأنها عرفت المشاعر والاحاسيس التي وضعها سوفوكليس في بطلة المسرحية . وهكذا فان الدمع الذي ذرفته أثناء التمثيل والذي اذاب عن الجفون لمسات « الماكياج » وجعل منها خيطاً ينساب على الخد ، هذا الدمع صهرها مع الجمهور في تلك المشاعر والأحاسيس . وهنا يظهر دور بقية الشخصيات في عملية الصهر هذه . فإلكترا لم تكن تطلب الثأر بسبب شخصي أناني ، ولو فعلت لما نالت من الجمهور أو من بقية الشخصيات والكورس أي عون او إعجاب . فالثأر كفكرة مجردة ، وخاصة حين يشمل فكرة قتل الأم ، لايجلب العطف والتأييد . ولكن إلكترا كانت مدفوعة الى طلب الثأر بالعوامل التي ذكرناها في مدخل هذا البحث ،من أوامر الإله ابولون ،الى الغضب من استهتار الأم بقدسية الزوجية ومسارعتها الى مشاركة عشيقها ثمرة الجريمة . وهذا ماساعدت على إظهاره كليتمنسترا حين عاملت ابنتها معاملة قاسية ولم تأبه لشكواها . وقد رأينا ذلك فعلاً في دور كليتمنسترا الذي جاء موفقاً على مسرح القباني . كما أن دور كروستميس المرح المستهتر ،يجب ان ينظر اليه على أنه نقيض دور الكترا الجاد المسؤول .

أما شخصية اورست فقد قدمها مخرجون عديدون لهذه المسرحية بوجهات نظر مختلفة . منهم من ظن بأن دوره ثانوي لايعدو كونه وسيلة تستعملها إلكترا لتنفيذ فكرة الثأر دون أن يكون له اشتراك مباشر في المناقشة

العقلية والصراع النفسي اللذين يسبقان عملية الاخذ بالثأر ، ومنهم من رأى فيه المسؤول الأول عن الأخذ بالثأر لكونه أقرب الرجال نسباً الى آغا ممنون لذلك قدموه كشخصية رئيسية لها أبعادها ،خاصة في اتخاذ قرار الثأر . وفي المسرحية، كما قدمت في دمشق، يلاحظ المشاهد بأن دور اورست كان ثانوياً من حيث الصراع النفسي واتخاذ قرار الثأر ، وأنه دخل المسرح فقط لينفذ رغبة الكترا ومشيئة الآلهة . وساعد على تقديم شخصية اورست على هذا النحو أن الممثل ، ربما بسبب دف،في صوته، ظهر و كأنه مقوداالى هذا العمل دون دافع داخلي . وهذا تفسير معقول للمسرحية ؛إذ أن الدافع الرئيسي للثأر هو الكترا . ولكن أغلب الظن بأن سوفوكليس أراد أن يقوم أورست هنا بدور اكثر أهمية في اتخاذ قرار الثأر، وأن دور الكترا في الدعوة الى الثأر يضعف مع ظهور أخيها . والدليل على اشتراك أورست باتخاذ قرار الثأر نتيجة لصراع نفسي ،هو أن أورست أتى متخفياً بصفة رسول ، ربما لأنه لم يكن قد قرر نهائياً الأخذ بالثأر . كما أنه لم يتخذ قراره النهائي إلا بعد أن قدم القرابين للآلهة ولروح ابيه القتيل . هاتان الحقيقتان تدلان على أن القرار الذي اتخذه اورست جاء بعد محاكمة شخصية للموضوع ، وبالتالي فان اورست كان عليه ان يظهر هذه المحاكمة في طريقة تمثيله الدور . يدعم هذا الرأي نص الحوار الذي يدور بين أورست والكترا ، حين يخرج أورست على القصر بعد قتل امه وتسأله أخته إذا كان كل شيء على مايرام في الداخل ،فيجيب بأن كل شيء على مايرام اذا كانت أوامر الإله كذلك. هذا دليل صراع نفسي بين الشك والتصديق ، لاسيا وأن العمل الذي قام به أورست هو عمل شاق نفسياً . أضف الى ذلك أن أورست عندما عاد إيجست الى القصر ، كان ميالاً الى سماع اقواله ودفاعه قبل أن يقتله ، لولا أن الكترا حثته على

عدم الإنصات الى هذه الأقوال . ربما كانت الكترا قد لاحظت شيئاً من التردد والندم في تصرفات أخيها ، فجاءت تحثه على المضي في اتمام عملية الثأر .

وكلمة اخيرة في المسرحية ككل لقد انسجم الممثلون مع ادوارهم بصورة عامة ، فجاءت المسرحية موفقة ناجحة خاصة في اللحظات الحاسمة . نذكر، على سبيل المثال لا الحصر ، لقاء اورست بإلكترا ثم تعرف إلكترا على اخيها واكتشافها بأنه مازال على قيد الحياة . كان هذا المشهد مؤثراً ، وأظهر تضافر جهود المخرج مع كافة الممثلين للتعبير عن مشاعر كامنة ليس فقط عن طريق الحركة التمثيلية ، بل ايضاً في كل حركة وسكنة ونظرات وموسيقى . ينطبق هذا على معظم مشاهد واحداث المسرحية ليثبت بأن جهداً بالغاً قد بذله القائمون على الاخراج والانتاج والتمثيل . وحبذا لو تكرر هذا الجهد الفني في إخراج مسرحيات كلاسيكية اخرى ، إذ في هذا النوع من المسرحيات يكمن الفن المسرحي الأصيل .

تاريخ فلسطين [1]

تأليف : لوران غاسبار

ترجمة : ابراهيم ميخائيل الخوري

عرض وتلخيص المقدم

محمد منذر لطفي

هذا هو الكتاب الثاني في سلسلة الثقافة العامة التي دابت إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي منذ أمد على نشرها وتقديمها للقارىء العربي ، فأخذت بذلك على عاتقها سد ثغرة واسعة في مكتبتنا المعاصرة حول مايمكن أن يخدم قضيتنا وأمتنا في معركتها المصيرية الحاسمة .

يقع الكتاب في مائة وستين صفحة من القطع الوسط ، وينقسم الى ستة فصول رئيسية بعد مقدمتين اثنتين ، أولاهما للمترجم ، والثانية للمؤلف .

---

(١) ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي – دمشق ١٩٦٩ .

وقد حاول المترجم في مقدمته إعطاءنا فكرة عن وجود مفكرين و كتاب أجانب لم يستطيعوا إنكار الحق و الوجود العربيين في فلسطين، لأنهم رأوا زيف الادعاءات الصهيونية ولمسوا جرائمها القديمة والحديثة ، وأمسكوا بالخيوط العريضة الرامية الى تضليل الرأي العام العالمي بصورة عامة ، والغربي بصورة خاصة ، وتشويه الحقائق الدامغة أمام عينيه لاظهار الضحية بمظهر المعتدي ، في الوقت الذي يمضي فيه المعتدي الحقيقي - تؤيده قوى الامبريالية والصهيونية بأمرها - إلى إظهار نفسه بمظهر المضطهد المعتدى عليه ، يستحق شفقة الرأي العام العالمي ويستدرها .

أما المؤلف فقد حاول في مقدمته او (مدخله) أن يلقي لنا بعض الظلال التاريخية التي رافقت وعد « بلفور » في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ وحتى الساعة ، و كيف أن فكرة اقامة قاعدة حصينة متفانية في سبيل انكلترا قد جعل معظم البريطانيين الأخصائيين بشؤون الشرق الأوسط في ذلك الوقت يقتنعون باقامة مثل هذه القاعدة الاستراتيجية التي تخدم مصالحهم في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، وهذا ما هيأ لغلاة الاسرائيليين فرصة استثنائية نادرة لعقد زواج مشترك يقوم على أسس تبادل المنافع الحيوية لكليهما ، وهكذا لم يبق أمام هذه الفكرة الا مرحلة التنفيذ العملي والدخول في لعبة الدول الامبريالية العظمى ، بعد اقناعها بتقديم الرجال و الأموال لبناء هذه القاعدة . . وهكذا كان . . وهكذا ظهرت اسرائيل الى الوجود عام ١٩٤٨ .

في الفصل الأول من هذا الكتاب الذي يحمل عنوان **الأصول** . . **أو محكمة داوود** يلقي لنا الكاتب كثيراً من الأضواء التاريخية على أرض فلسطين في فترة ما قبل الميلاد وحتى مجيء الرسول العربي محمد (صلعم) ، أي

منذ العصر البرونزي الأوسط الذي رحل فيه ابراهيم عليه السلام عن مدينة «أور» حيث كانت تحكم السلالة السومرية الثالثة ، ووصل الى أرض كنعان حوالي عام ١٨٥٠ قبل الميلاد ، في الوقت الذي كان فيه « الأكاديون » قد أصبحوا شعراء مبدعين يكتبون ملحمة الخلق « إينوماإليش » وملحمة « جلقامش » التي تقص تاريخ الطوفان ، الى العصر الذي استعاد فيه المسيحيون أملهم بالقدس لفترة بسيطة أيام حكم « هرقل » ، ذلك أن شعباً قديماً آخر أخذ يطالب بها لتكون مدينته المقدسة ، إنه الشعب العربي الذي انبثقت ديانته الجديدة من الديانتين اليهودية والمسيحية ، حيث عرفت مدينة « أورشليم » ومنذ ذلك التاريخ السحيق بمدينة « القدس » ، بعد أن تعرضت قبل ذلك الى التهديم والبناء أكثر من مرة على يد « نبوخذ نصر » وأمثاله من فاتحي ذلك العهد وخلال تلك الحقبة الضاربة من عمر الزمان بها .

وفي الفصل الثاني الذي يحمل عنوان الاسلام والمسيحية يحدثنا الكاتب عن انبثاق النور السماوي الجديد من قلب الجزيرة العربية ، وكيف كانت تسير الحرب المقدسة او الجهاد في خط بياني واحد مع الايمان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، والتي تشكل الفرائض الأساسية لكل مسلم ، وكيف كان الوقت مناسباً من جميع النواحي لنشر الرسالة الجديدة ، « فبيزنطة » خرجت منهكة من حروبها مع الفرس ، ولم تستطع ان تصمد في وجه الحماسة الدينية لهؤلاء الفرسان الصناديد ، ثم يحدثنا الكاتب عن لقاء ابن الصحراء الخليفة « عمر بن الخطاب » مع « صوفرونيوس » بطريرك القدس على جبل الزيتون في شباط عام ٦٣٨ م وعرضه السلام عليه على النحو التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا ما أعطى عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل بيت المقدس، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، لا تسكن ولا تهدم من قبل المسلمين إلا إذا تمردوا مجتمعين »

وكيف ان هذا كان ـ دون شك او مبالغة ـ أنبل وألطف فتح عرفته هذه المدينة في تاريخها الطويل وحتى أيامنا الحاضرة، ثم يصف لنا الكاتب المعاملة الانسانية الطيبة التي كان يعامل بها أهل المدينة من مسيحيين ويهود من قبل خلفاء عمر المتسامحين وحتى أيام الحروب الصليبية، هذه الحروب التي كان سدنتها ينتزعون من المسلمين كل حرية، ويحولون جوامعهم الى كنائس، وكانت هذه ظاهرة ترافق بدء كل حرب صليبية جديدة، وكيف تمكن « صلاح الدين » أخيراً من القضاء على جيش الفرنج فوق بحيرة طبريا في ٤ تموز عام ١١٨٧ م، وكيف سجل له التاريخ مفخرة عظيمة عند حصاره لمدينة القدس حيث توصل الى منع كل تدمير وقتل غير ضروريين، وذلك عندما استسلمت المدينة في ٢ تشرين الاول من نفس العام، لقد أثبت هذا القائد الفذ أنه، بالاضافة لكونه محارباً من نوع ممتاز، عاقل وخبير بنفسية الناس عندما اعلن بيانه المشهور :

« لن تمتنع الطوائف المسيحية المختلفة من المجيء الى بيت المقدس حتى ولو سويت تسوية »

ويمضي التاريخ ويدور الزمن ليحمل الى هذه المدينة فاتحاً آخر هو « إدمون اللنبي » قائد القوات البريطانية، وذلك في ١٠ كانون الاول عام ١٩١٧ الذي لفظ عندما قدمت له مفاتيح القبر المقدس كلمتين ترددتا كثيراً فيما بعد، هما: « الوضع الراهن ».

في الفصل الثالث الذي يحمل عنوان **وطن قومي** ينقلنـــا الكاتب الى عام ١٨٩٧م .. الى تاريخ المؤتمر الصهيوني الأول برئاسة الدكتور « تيودور هرتزل » والذي جاء فيه : « إن غاية الصهيونية انشاء وطن للشعب اليهودي في فلسطين » . وكيف انتهت المفاوضات مع السلطات التركية إلى لا شيء ، مع أن العرض الذي قدم للباب العالي كان مغرياً جداً : « إذا أعطانا جلالة السلطان فلسطين ، فاننا نتعهد بتنظيم اقتصاد تركيا تنظيماً كاملا » . وكيف كان جواب « عبد الحميد » بليغاً للغاية عندما أجاب : « إن الامبراطورية التركية لاتخصني وحدي بل هي ملك للشعب التركي بأكمله ولا أستطيع أن أوزع أي قطعة منها ، فليوفر اليهود مليـاراتهم ، وعندما تقسم الامبراطورية فانه يمكنهم الحصول على فلسطين مقابل لاشيء ، لكن جثتنا وحدها هي التي ستقسم ، ولن أقبل باجراء تجارب حية علينا » .

وبعد ذلك ينقلنا الكاتب الى عام ١٩١٥ حيث كانت ثلاث دول تتنازع على حدود الامبراطورية العثمانية هي : بريطانيا - فرنسا - روسيا ، بالاضافة الى دولة رابعة كانت تختفي وراء الستار وتنجح في اكتساب النفوذ في الأروقة السرية حيث تسوّى شؤون العالم ، ألا وهي الولايات المتحدة . والحقيقة أن انتظار تقسيم الامبراطورية أحيا أملاً جديداً في صفوف المنظمة الصهيونية التي انتقلت إدارتها في ذلك الوقت إلى يد صهيوني مقيم في إنكلترا أوتي موهبة في الكيمياء والسياسة على حد سواء ، وكيف كرس « حاييم وايزمن » حياته للقضية الصهيونيـة ، وعرف بحذق وذكاء كيف ينتقي الأشخاص والمناسبات الملائمة لكي يدفع بالقضية الصهيونية إلى الأمام داخل فلسطين وخارجها ، حيث حقق بعض التقدم في الفكرة الـتي تدعو الى فصل فلسطين وجعلها دولة تفصل بين مصر وسوريا ، وفي ذلك العام

بدأت المفاوضات الأولية لعقد اتفاق سري (انكليزي - افرنسي) صودق عليه في أيار ١٩١٦ واستهدف تقرير مصير من تسمي نفسها « بالدول العربية المستقلة المقبلة » . كما حدد بموجبه مناطق نفوذ كل من الدولتين بما في ذلك وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني (معاهدة سايكس - بيكو) ، ذلك أن الغرب كان مايزال مؤمناً « برسالته الحضارية » وفي ذلك تبرير لامبرياليته ، وإن كان هذا التبرير ساذجاً وغير صادق .

وفي ٢ تشرين ثاني عام ١٩١٧ حدث وعد « بلفور » الذي كان إجراءاً سياسياً أكثر منه إنسانياً ، والذي جاء ثمرة صراع طويل للصهيونية العالمية التي اعتمدت في الحصول عليه على العوامل الحقيقية التالية التي أدت في النهاية إلى إقناع بريطانيا باعطائه :

١ - ضمنت الصهيونية العالمية لبريطانيا إقناع أمريكا بدخول الحرب العالمية الأولى لصالح الحلفاء ضد الألمان .

٢ - أوحت لها أن إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين يمكن بريطانيا من استخدامه حصناً لها في الشرق الأوسط وخاصة لضمان حماية قناة السويس والمصالح البترولية ، واعتباره سوراً يكون الحرس الأمامي للحضارة ضد البربرية .

وقد جاء في هذا الوعد ما يلي :

« تنظر حكومة صاحب الجلالة بعطف إلى تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين » ، ومن المهم جداً لأجل فهم مستقبل فلسطين أن نفهم الظروف التاريخية والمصلحية التي رافقت هذا الوعد والنتائج التي ترتبت عنه والتي أفرد لها الكاتب أكثر من خمس وعشرين صفحة .

والحقيقة أن وعد « بلفور » كان نصراً للاستعمار الغربي « الكريم » ، أو على الأقل هكذا اعتبرته أكثرية المسيحيين الغربية التي كانت تنظر إلى الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط على أنها حرب صليبية جديدة ضد الاسلام ، ولم يكن أحد يريد أن يعلم أن وراء مسلمي الامبراطورية العثمانية التي أعلنت الحرب المقدسة شعوباً إسلامية مظلومة بدأ ضميرها القومي بالاستيقاظ .

وفي الفصل الرابع الذي يحمل عنوان **اليقظة العربية** يحدثنا الكاتب عن نشأة البذور الأولى لما يمكن أن يسمى فيمابعد « ضمير الأمة العربية » ، هذه البذور التي انطلقت من سوريا ولبنان على يد بعض المنتديات الأدبية ، وأخذت على عاتقها إعادة الاعتبار إلى لغة قد تردت ، بالإضافة إلى مقاومة السبات والجهل العميقين ، وإذكاء اليقظة العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، وتأتي في طليعة هذه الجمعيات الجمعية التي تألفت عام ١٨٧٥ في بيروت على أيد طلاب قدامى من المعهد السوري البروتستني هناك ، والذين كانوا ينشرون أفكارهم حسب الطريقة الصينية بواسطة إعلانات تلصق ليلاً على جدران دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا ، وقد اكتفوا في البدء بفضح نظام السلطان عبد الحميد ، ولكنهم سرعان مادونوا مطالبهم الأساسية التي تتلخص بالآتي :

١ – استقلال سوريا ولبنان .

٢ – الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد .

٣ – إلغاء القيود الأخرى المتعلقة بحرية التعبير والنشر .

٤ – حصر خدمة العسكريين المجندين من أهل البلاد في خدمة عسكرية محلية

وفي هذا الوقت بالذات (اعتباراً من عام ١٨٧١) برز في مصر رسول النهضة الجديد « جمال الدين الأفغاني » وراح يدعو الى نهضة إسلامية شاملة ، وهو أول من حاول أن يوفق بين الاسلام وبين الأزمنة الحديثة ، كما كان أول من تكلم عن تحرير الشعوب الاسلامية من السيطرة الأجنبية .

وقد تميز مطلع القرن الجديد بالنسبة للشرق الأوسط بدخول حزب « تركيا الفتاة » الى المسرح السياسي ، وقام أعضاؤه في لجنة الاتحاد والترقي - التي تضم بعض الأعضاء العرب - بثورة عسكرية عام ١٩٠٨ وأجبروا السلطان عبد الحميد على وضع دستور جديد للبلاد يتم عرضه على الشعب ، وعلى إثر ذلك تم تعيين الشريف حسين بن علي - من سلالة الرسول ﷺ والمنفي الى القسطنطينية منذ ١٦ عاماً - شريفاً لمكة ، وفي أعقاب سقوط عبد الحميد واستلام محمد الخامس السلطة الصورية لجأت لجنة الاتحاد والترقي الى استبداد لا يقل مطلقاً عن استبداد السلاطين .

وقد كثرت في هذه الفترة الجمعيات السرية في سوريا ولبنان ، وعادت الحركة الوطنية العربية الى طريقها السري ، كما ازداد نفوذ شريف مكة السياسي والديني وهذا ما جعل الأتراك يفتشون على طريقة حكيمة لاستبداله ، ولكنه كان على علم بمناوراتهم ، لذلك سعى الى دعم الجمعيات السرية السورية له و كذلك العناصر البريطانية في القاهرة التي بدت مضطربة من جراء تزايد النفوذ الألماني في القسطنطينية ، ثم بناء خط حديد بغداد الذي شكل في نظر بريطانيا تهديداً جدياً لمصالحها في الخليج العربي ، ولما كان دخول تركيا الحرب العالمية الأولى الى جانب ألمانيا أمراً محتملاً جداً ومنذ البداية ، لذلك سعت العناصر البريطانية في

القاهرة وعلى رأسها « كتشنر » – بعد أن أصبح وزيراً للحربية في أوائل الحرب العالمية الأولى – لاقناع حكومته بأهمية التحالف مع « الحسين »، وتم التحالف المنتظر نتيجة مراسلات (ماكماهون – حسين) التي وعد فيها الأخير بمساعدة بريطانيا لقاء مساعدته على نيل الاستقلال وتشكيل الدولة العربية الجديدة بعد الانفصال عن تركيا، وخاصة رسالة « ماكماهون » الثانية التي رضخ فيها الى إعطاء الحسين ضمانات صريحة فيما يتعلق بنوع الاستقلال وحدود الدولة العربية، وتعد هذه الوثيقة من أهم الوثائق في تاريخ الحركة الوطنية العربية، وإن كان فيها بعض التحفظات فيما يتعلق بالشريط الساحلي السوري ولوائي البصرة وبغداد.

كما أن هناك وثيقة تاريخية أخرى لا تقل عنها أهمية هي « بروتوكول دمشق » الذي قدم الى فيصل في دمشق من قبل أهلها وذلك عند عودته من محادثات القسطنطينية، والذين رغبوا أن يستخدم الحسين ما جاء فيه كأساس لأي مفاوضات يجريها مع الانكليز لقاء اعتبارهم إياه ناطقاً باسم الشعب العربي قاطبة. ومن أهم نقاطه ما يلي :

١° – اعتراف بريطانيا باستقلال البلدان العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

– من الشمال : من مرسين وأضنه حسب خط العرض ٣٧ تقريباً وحتى حدود ايران.

– من الشرق : حدود ايران حتى الخليج العربي.

– من الغرب : البحر الأحمر، ثم ابتداء من خليج العقبة خط شمالي – شمالي غربي يصل إلى نهاية الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

٢ً – إلغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي تتمتع بها المؤسسات الاجنبية.

٣ً – عقد معاهدة تحالف بين بريطانيا والدولة العربية المقبلة .

٤ً – تعهد الدولة العربية بمنح بريطانيا أفضلية اقتصادية .

وقد تبعت رسالة (ماكماهون) الثانية للحسين مراسلات أخرى لم يقبل فيها الحسين أن يتنازل عن سوريا ، ولم يستطع (ماكماهون) أن يعد بشيء إضافي ، مع عدم إخفائه أن لفرنسا مطامع في هذه المنطقة ، وقد وافق الحسين في النهاية على أن يعاد النظر في موضوع سوريا بعد الحرب ، وهكذا وقع الاتفاق في كانون الثاني عام ١٩١٦ على الرغم من وجود هذا الخلاف ، والحقيقة أن اتفاقيات (سايكس - بيكو) شباط ١٩١٦ ، وكذلك المحادثات الثنائية التي جرت بين بريطانيا واللجنة السياسية للمنظمة الصهيونية برئاسة وايزمن ، والتي قدمت فيها اول مذكرة للحكومة البريطانية ، تضمنت ست نقاط ، استخدمت فيما بعد اساساً للمفاوضات بين الطرفين وانتهت بوعد بلفور ؛ لم تتسرب أنباؤها الى الحسين ولا الى فيصل ولا الى اي زعيم من زعماء الحركة الوطنية العربية إلا بعد فضحها ونشرها من قبل البلاشفة في روسيا بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية ١٩١٧ ، حيث تلقفتها القيادة التركية والألمانية ونشرتها نشراً حرفياً وواسعاً بين العرب وأرفقتها بعروض صلح منفردة مع الحسين وفيصل في بداية كانون الأول ١٩١٧ ، ولكن سرعان ما هدأ الانكليز من روع العرب البسطاء مؤكدين لهم بتصريحات وبيانات جديدة التحرير والاستقلال ، وأن ماتذيعه القيادة الألمانية والتركية ما هو إلا اشاعة للتفرقة بين الحلفاء المتحابين المتحدين ، وهكذا انطلت اللعبة الانكليزية الخطيرة مجدداً على العرب وبشكل استخدم فيه الدهاء السياسي والحنكة والمراوغة الى أبعد الحدود .

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى أثارت وعود ماكماهون جدلا وحماسة لمعرفة ما إذا كانت هذه البقعة أو تلك داخلة فيها ، وكانت قضية فلسطين - التي كانت تعرف في ذلك الوقت بالسنجق الجنوبي الغربي - مركز الثقل في هـذا الجدال ، حيث أكد العرب دخولها ضمن اراضي الدولة العربيـة التي وعد بها ماكماهون ، بينما حاولت انكلترا أن تثبت العكس قائلة « أنه يجب اعتبـار فلسطين منطقة ستجري مفاوضات خاصة لتقرير مصيرها » .

ولكن الواقع الذي ساد هو أن بريطانيـا كانت تسعى تدريجيـاً لتطبيق وعد بلفور عن طريق الادارة المحلية العسكرية الانكليزية التي أشرفت على فلسطين حتى صيف ١٩٢٠ ، في الوقت الذي كان فيه « فيصل » يضيع ضياعاً تاماً في لندن وباريس أمام الدبلوماسـية الغربية بالاضافة الى ممارسة الضغوط المختلفة عليـه في لندن من قبل « حلفـائه » باعتباره ممثلاً للبلدان العربية لكي يوقع اتفاقاً مع الصهيونيين ، هذا الاتفاق الذي أعطى بموجبه فيصل - وبدون أن يعلم - موافقته على بدء التنفيذ العملي لوعد « بلفور » .

والجميع يعرف كيف تم بعد ذلك تقسيم الغنائم بين الحلفاء الحقيقيين (انكلترا - فرنسا) ، وكيف خضعت البلاد العربية بأسرها الى مناطق نفوذ لهاتين الدولتين بعد خيانتها للملك حسين وابنه فيصل ، والحقيقة أنه ينبغي تأريخ حقد العالم العربي على الغرب منذ تنفيذ قرارات (سان ريمو) الاستعمارية ، لأن الحركة الوطنية العربية أخذت تتجه اتجاهاً جديداً منذ ذلك الوقت لشعورها بأن الغرب قد خدعها الخدعة الرهيبة الكبرى .. !

وفي الفصـل الخامس الذي يحمل عنوان الكتاب الأبيض يبين الكاتب أن العرب لم يكونوا قط معادين لليهود وإنما أُجبروا على ذلك ، وبدأوا

بعداوتهم منذ بدأوا يفهمون رويداً متطلبات السياسة الصهيونية التي أخذت تزداد وضوحاً بازدياد الهجرة الى فلسطين ، لتشعرهم بأنهم مهددون سياسياً واقتصادياً في بلادهم ، وكانت ثورة عام ١٩٣٦ نتيجة لازمة لهذا الشعور ، وفي ٧ تموز عام ١٩٣٧ عرضت اللجنة الملكية (تقرير بيل) المتضمن ولأول مرة تقسيم فلسطين تقسيما ثلاثياً (دولة عربية وأخرى يهودية ، ومنطقة ثالثة تشمل بعض الأراضي المقدسة وبعض المدن التي تبقى تحت الانتداب البريطاني على أن تربط الدولتان العربية واليهودية بمعاهدات مع بريطانيا تترك لهـا مسؤولية الشؤون الخارجية والدفاع) ، وقد مات هذا الاقتراح فور ميلاده لرفضه من قبل الطرفين ، ولما لم يتم أي اتفاق نشرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض لعام١٩٣٩ المستوحى معظمه من توصيات لجنة (بيل) وبالشكل الذي لاحظناه سابقاً ، والحقيقة أن هذا الكتاب اعتراف مشرف بالأخطاء المرتكبة في صياغة نصوص الانتداب ، مع أنه في الوقت نفسه كسب زمني يرمي الى تهدئة العرب خلال فترة الحرب العالمية الثانية لئلا تتعرض المصالح الحيوية البريطانية في قناة السويس وبترول الخليج والعراق الى الخطر ، ولكنه جاء متأخراً جـداً ، وقد جاء فيه أن الحكومة البريطانية لا تنوي أن تتبنى قيام دولة يهودية ، وهي ترى في فلسطين دولة مستقلة مقبلة يجب أن يتقاسم فيها اليهود والعرب السلطة والمسؤولية ، ولكنه جاء كما سبق وذكرنا متأخراً جداً وفي أسوأ الأوقات ، لأن « الوطن القومي » كان قد تبوأ أهمية كبرى ليست عددية فحسب وإنما سياسية أيضاً ، بل لقد أصبح رجال الساعة اليهود من أنصار القيام الفوري للدولة اليهودية ، ومن الطبيعي أن يلقى مثل هذا الكتاب معارضة عنيفة من قبل الصهيونيين إلا أنهم لم يجهروا بها لأنهم كانوا يعلمون أن مصيرهم مرتبط بمصير بريطانيا زمن الحرب ، فلا يمكن أن

يبحث أمر دولة يهودية بدون انكسار ألمانيا النازية ، وبعدها يمكن – وكما هي العادة – اللعب على القوانين ودونما حاجة الى إعلان معارضة صريحة

وفي أواخر الحرب العالمية الثانية ظهرت أول وثيقة سياسية هامة هي « بروتوكول الاسكندرية » الذي وضعه ممثلو البلدان العربية المجتمعون في تلك المدينة برئاسة « النحاس باشا » رئيس وزراء مصر ، والتي أظهرت استعدادهم للتفاوض حول مستقبل فلسطين على الأسس الواردة في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ ، ولكن القرارات المطلوب اتخاذها لم تعد بيد انكلترا بصورة تامة في ذلك الوقت ، فقد تغلغلت الصهيونية كثيراً في أمريكا التي أرادت منذ دخولها الحرب أن تقول كلمتها في الشرق الأوسط بعد أن سيطر الصهيونيون على الكونغرس الأمريكي الذي قدم الى الرئيس « روزفلت » عدة قرارات تطلب فيها منه أن يضع كل ثقله لإلغاء قرارات الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ لكي تعود الهجرة والسير بالوطن نحو دولة يهودية ، بالإضافة الى أن « تشرشل » المعادي أصلاً للكتاب الأبيض كان وقتها على رأس الحكومة البريطانية

ويبدو أن الحرب العالمية الثانية أنامت العرب في الوقت الذي كان فيه اليهود يتسلحون وينتظمون ، فهل كان الازدهار الاقتصادي النسبي الذي رافق وجود الجيش الانكليزي بعدده الكبير الى حد ما هو سبب هذا السبات ؟ أم كان سببه استهلاك الحماسة بعد إخفاق ثورة عام ١٩٣٦ – ١٩٣٧ ؟

ومهما يكن من أمر فان اليهود قد أصبحوا في ذلك الوقت على استعداد تام لإعلان دولة اسرائيل وحمايتها ، بينما ينبغي على العرب أن يرتجلوا كل شيء !

وفي ٢٢ أيار عام ١٩٤٥ قدمت الوكالة اليهودية طلباً صريحاً الى الحكومة البريطانية لاقامة دولة يهودية فورية في فلسطين (غير مقسمة ولا منقوصة) ،

كما أصر الطلب على انتقال مراقبة الهجرة مباشرة الى أيدي الوكالة بالإضافة الى قرض دولي لتمويل هجرة أول مليون يهودي ، ولكن حكومة حزب العمال رأت أنه من الحكمة إلقاء مسؤولية مستقبل فلسطين على عاتق الأمم المتحدة .

وفي نيسان ١٩٤٦ نشر تقرير لجنة التحقيق الأمريكية الانكليزية الذي يناقض الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ نقطة نقطة ، بل يلح على التوصية بقبول فوري لمائة الف يهودي موجودين في معسكرات اللاجئين بألمانيا ، وكذلك بتوصية أخرى لا تقل عنها أهمية وهي إلغاء القيود على بيع الأراضي ، إلا أن اللجنة وجهت نداء الى الطرفين قالت فيه : « يجب ألا يسيطر العرب على اليهود ولا اليهود على العرب لأن فلسطين أرض مقدسة بالنسبة للمسيحيين واليهود والمسلمين ، ولا يمكن أن تصبح بلداً تدعي ملكية هذه الديانة أو تلك » .

وقد لاحظت الوكالة اليهودية عند نشر هذا التقرير أن الشعب اليهودي المحروم من وطن أو دولة لم تبحث قضيته الأساسية ، وكان جوابها الحقيقي تزايد التخريب والإرهاب مما حدا ببريطانيا إلى وقف زعمائها الموجودين في فلسطين ، ولكن الرئيس « ترومن » أعلن وبكل هدوء أن أمريكا لم تستشر في هذه الاجراءات لذلك فانها ستعيد النظر في العون الاقتصادي المعروض على بريطانيا .

وعند ذلك دعيت للتحقيق لجنة جديدة (انكليزية - امريكية) فاقترحت إحداث ولايتين (عربية ويهودية) تتمتعان بالحكم الذاتي على أن تبقى منطقتا القدس والنقب تحت الادارة البريطانية ، ولم تقبل الوكالة اليهودية بذلك بل قدمت مخططاً مجحفاً للتقسيم كما قدمت الدول العربية المستقلة مشروعاً

آخر للتقسيم وذلك في مؤتمر لندن ، أخذت خطوطه الرئيسية من الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ ، ولكن دون جدوى .

وإزاء هذه التناقضات دعيت الجمعية العامة للأمم المتحدة إلى عقد دورة خاصة ، عينت على أثرها لجنة لدراســة القضية الفلسطينية ، حيث قدمت بعد الدراسة تقريراً يقضي بتقسيم فلسطين مع التأكيد على أهمية الوحدة الاقتصادية ، وقد رفض هذا المشروع من قبل اللجنة السياسية للجامعة العربيــة بينما أعلنت الوكالة اليهودية استعدادها لقبوله مع بعض التعديلات ، وهذا ما دعا الأمم المتحدة لتشكيل لجنة جديدة أعادت دراسة مقترحات اللجنة السابقة وأجرت فيه بعض التعديلات لصالح العرب وقدمته إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة للتصويت، وتحت الضغط الأمريكي تم التصويت عليه في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٤٧ فقبــل حل التقسيم بـ (٣٣) صوتاً ضد (١٣) صوتاً وامتناع (١٠) أصوات عن التصويت ، وكان بإمكان حرب فلسطين أن تبدأ !

في الفصل السادس والأخير الذي يحمل عنوان الفلسطينيون يحدثنا الكاتب عن الجو السياسي والمعنوي الذي بدأت فيه حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨ ، وكيف ان العرب لم يستفيدوا في هذه المجابهة من قوتهم المعنوية من حيث أنهم يحاربون في سبيل مثل أعلى له علاقة مباشرة ببقائهم على قيد الحياة ، يضاف الى ذلك وحدة المحاربين الصهيونيين وعنادهم واستعدادهم الجيد وتدريبهم القتالي العالي ، بينما يرى المرء في الطرف الآخر جامعة عربية منقسمة على نفسها ، يراقب أعضاؤها خلسة بعضهم بعضاً ، وما أكثر الجنود المصريين والعراقيين وحتى السوريين الذين كانوا يجهلون لماذا ينبغي عليهم أن يقاتلوا ، يضاف إلى ذلك ضآلة عدد الضباط وصف الضباط وقلة خبراتهم ، وقد لاحظ المراقبون الحياديون في تلك الفترة تطرفاً من قبل العرب

في إظهار نزعة الحرب قولاً لا فعلاً ، وهي نزعة تتنافى مع نقص واضح في الفعالية .

ويتابع الكاتب سرد وقائع وتطورات الحرب العربية الاسرائيلية بهدنتيها الأولى والثانية ثم مشروع التقسيم الجديد الذي تقدم به « الكونت برنادوت » واغتياله على يد أعضاء مجموعه « شترن » الارهابية نتيجة لذلك ، ثم تأسيس المملكة الأردنية الهاشمية في الأول من كانون الأول عام ١٩٤٩ والمناداة بالأمير عبد الله ملكاً على فلسطين العربية ، وأخيراً توقيع الهدنة وتعيين الحدود على وجه التقريب حسب مواقع المتحاربين قبل حرب حزيران الأخيرة .

ولا ينسى الكاتب سرد بعض الحقائق الوحشية التي رافقت هذه الحرب الصغيرة بمدتها .. الخطيرة بنتائجها .. وكيف طرقت فظائع « الأرغون » – التي بلغت ذروتها في دير ياسين – أسماع الناس على نطاق واسع ، وغذتها الدعاية لنشر الرعب والهلع ، بمكبرات الصوت التابعة لجيش الدفاع الاسرائيلي والتي أطلقت نداءها إلى سكان القرى بدافع « إنساني بحت » أن « مازالت طريق أريحا مفتوحة أمامكم ، فاهربوا إذا كنتم لاتريدون أن تقتلوا عند الاستيلاء على قراكم » قد سمعت مجدداً في حرب حزيران عام ١٩٦٧

وفي الوقت الذي طمأن فيه « بن غوريون » الغرب على مستقبل السكان غير اليهود في اسرائيل ، وفي الوقت الذي طرحت فيه اسرائيل عند قيامها تبنيها مبادىء الحرية والعدالة والسلام كما صورها أنبياؤها .. نرى أنه لايمكن أن يحصل أي عربي من الـ (١٧٠٫٠٠٠) مواطن هناك على الجنسية الاسرائيلية مطلقاً ، وهذا مايجعل هذه التفرقة العنصرية مضحكة للغاية لصدورها عن شعب سبق له أن تعرض هو الآخر لمآسيها منذ أمد قريب !

وتدعي اسرائيل أنها الدولة الديموقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط ، لكن يبدو أن هذه الديموقراطية وقف على المواطنين اليهود دون سواهم ، وقد سلكت سبلاً وعرة وملتوية منذ إعطاء وعد بلفور — الذي أكد على عدم إلحاق أي ضرر بمصالح السكان غير اليهود المدنية والدينية — إلى قيام إسرائيل وسن الجنسية الذي جعل العرب فيها مواطنين من الدرجة الثانية .

ويبدو أن فكرة العدالة والقوانين الأخلاقية التي جاء بها الأنبياء ، والتي أثيرت كثيراً عند قيام إسرائيل ، قد صرف النظر عنها نهائياً ، وأعيدت الديانة اليهودية إلى بوتقة ضيقة من القومية ، وكانت قبل ذلك فكرة تقول بفتح الأبواب واسعة أمام الديانة اليهودية لكي تتحول من ديانة قومية الى ديانة عالمية ، وهذا ماحدا بالكاتب الصهيوني (أ . ليليتال) مؤلف كتاب « ثمن إسرائيل » أن يطرح على نفسه سؤالاً طالما أقلق ويقلق الكثير من يهود العالم ، ممن يضعون إشعاع اليهود الروحي قبل أي اعتبار آخر .

« هل تستطيع الديانة اليهودية أن تبقى على قيد الحياة كقوة دينية مفصولة عن إسرائيل فيثبت بهذه الصورة أن فكرة الأمة لم تكن سوى وسيلة تاريخية لحفظ الايمان الروحي حياً ؟ أم أنه ينبغي على الديانة اليهودية أن تتوارى الآن بعد أن قدمت خدمات جلى للقضية القومية ؟ » .

ويترك المؤلف الاجابة على مثل هذه الأسئلة للزمن .

عروبة لبنان [1]

تأليف : محمد جميل بيهم

عرض : ظافر عبد الواحد

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب : « ليس القصد الأول من تأليف هذا الكتاب محاولة إثبات عروبة لبنان ـ لأن هذه القضية لا تحتاج لإثبات ـ وإنما الغاية منه كشف النقاب عن نواح أخرى في تاريخ وطننا العزيز لم يتعرض لها المؤرخون ، لا سيما في صدد تدوين سيرتي الأميرين فخر الدين المعني الثاني وبشير شهاب الثاني على وجه صحيح غير الذي أراده الاستعمار ، وفي صدد الأسباب الخارجية التي أدت إلى إضفاء لون خاص على لبنان وفقاً لمخطط الاستعمار الرامي إلى استعادة البلد المقدس . » [2]

---

(١) منشورات دار الريحاني للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٩ .

(٢) ص ٥

ويورد المؤلف في الكتاب معلومات مخالفة لما تطالعنا به كتب التاريخ الشهيرة ، فهو يذكر أن صلاح الدين الأيوبي أسر لوزينيان ملك الصليبيين [1] ، والمعروف أن الملك الذي أسره هو ريشار قلب الأسد .

ونستطيع أن نستنبط من الكتاب بنية المجتمع اللبناني ، فهو وسط بين النظام القبلي العربي والنظام الإقطاعي الذي كان سائداً في أوربا . فرغم أن السلطان كان يقطع الأراضي لبعض الأمراء ، فــإن الإقطاع لم يكن يعني التمليك بقدر ما يعني تكليف الأمير جباية الأموال لحساب الدولة . وكان لكل أمير عشيرته .

ومن الملاحظات التي لا نقر المؤلف عليها ظنه أن بريطانيا كانت تلقب بالعظمى نظراً لسيادتها على البحار [2] ، مع أن الفرنسيين هم الذين دعوا هذه الجزيرة (بريتانيا الكبرى) Grande Bretagne تمييزاً لهـا عن شبه جزيرتهم Bretagne (بريتانيا) ، وقد طغى تفخيم التاء في اللغة العربية عن كلمة (الكبرى) فأصبحت الجزيرة (بريطانيا) تمييزاً لها عن شبه جزيرة بريتانيا .

وننتقل إلى الموضوع الرئيسي للكتاب الذي يعلي فيه المؤلف من قدر الأمير فخر الدين المعني الثاني ، بينما يحط من قدر الأمير بشير شهاب الثاني .

فيرى في الأمير المعني صاحب مبدأ التجأ من الأتراك إلى الأوربيين ، فلما حاول هؤلاء إخراجه عن دينه عاد إلى بلاده حاكماً . بينما يرى في الأمير شهاب انتهازياً أسداً على بني قومه وذليلاً ليس أمام السلطان وحسب بل أمام والي عكا أيضاً ، يسوط قومه ليجبي منهم الضرائب ، ويتآمر مع نابليون ضد السلطان .

---

(١) ص ٢٩
(٢) ص ٧٩

ولا يحاسب المؤلف الأمير الشهابي على أساس القيم الاجتماعية المعاصرة ، وإنما يحاسبه على أساس قيم ذلك العصر . فقد تعود أن يقبل « الأتك » ـ أي ذيل الثوب ـ وقد خلف والي عكا الشديد أحمد باشا الجزار وال لين هو سليمان باشا. ولما أتاه الأمير شهاب معزياً بوفاة أمين سره وأراد أن يقبل « الأتك » ، لم يمكنه سليمان باشا من ذلك ، بل أعطاه يده وأجلسه بالقرب منه (١) . ويتهم المؤلف الأمير شهاب بأنه كان على دينين : دين إسلامي أمام السلطان ، ودين مسيحي أمام الفاتيكان ، رغم أن المؤلف يفند الأدلة على اعتناق الأمير الشهابي الديانة المسيحية ، ولا سيما دفنه في كنيسة الأرمن الكاثوليك باستمبول بناء على وصيته (٢)

ومن خلال الشواهد التي يسوقها المؤلف على ظلم الأمير بشير واتفاق الخصوم ضده نستطيع أن نستشف البنية التي كانت مختفية تحت البنية الفوقية . إذ يروي الأمير حيدر الشهابي مؤرخ الأمراء الشهابيين كيف تمرد أهل المتن على الجباة واشتبكوا مع قوات الأمير بشير التي كان يقودها بنفسه (٣) . كما يروي كيف اتفق الحزبان المختلفان في بيروت (حزب المفتي الشيخ عبد اللطيف فتح الله الطرابلسي وحزب القاضي الشيخ أحمد الأغر البيروتي) ـ يوم لم يكن ينتظر أحد اتفاقهما على شيء واحد ـ وذلك حين علم أهل بيروت أن والي عكا ولى عليهم الأمير بشير ، فأغلقت بيروت أبوابها في وجه الأمير بشير (٤) . فتحت رماد

(١) ص ١٤٥
(٢) ص ١٧٢ - ١٨٠
(٣) ص ١٤٩
(٤) ص ١٦٤

الخلافات القبلية والطائفية ، كان هناك وميض بنية جمهور لو أتيح له التنظيم لثار على العبودية وأقام لنفسه النظام الذي يرتضيه .

وإذا كان الأمير بشير انتهازياً ، فما هو دليل المؤلف على مبدئية الأمير المعني ؟ إنه رفض التآمر مع الدول الأوربية ضد الدولة العثمانية أثناء التجائه إلى أوربا ، رغم أن التجاءه كان نتيجة خلاف مع الدولة العثمانية . ومن العجيب أن المؤلف يعزو المساواة التي أقامها الأمير بين الطوائف بعد عودته إلى لبنان ، إلى « هواء التمدن الحديث الذي تنشق نسيمه في غربته خلال خمس سنين[1] » ، مع أنه يذكر أن هذه الحرية لم تكن رائجة في أكثر البلاد الأوربية ، وأن مضيفيه أغروه باعتناق الديانة المسيحية .

ويشير المؤلف إلى المخطوطة التي صدر بها الأستاذان أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني كتاب (الأمير فخر الدين المعني) ، وهذا نصها :

« الأمير المكرم فخر الدين اشتها يقعد في بلدان الأمير المعظم وتحت حمايته الشريفة مع حرمته وبنته وجوارها وولدين صغار يخدموا الباب وستة أم سبعة من خدامه والحج كيوان مع باقي رفاقه الأوخار ، الموجودين معه الآن يرجعوا لبلادهم ليعلموا ويخبروا أهله أنه جالس في بلاد النصارى ليستعين بواسطة الأمير المعظم معونة وقوة من البابا وباقي سلاطين النصارى ويرجع لبلاده بعمارة قوية . ولذلك طلب من حضرة الأمير المعظم ينعم عليه بها يعتازه بذلك » .[2]

ويفند الأستاذ جميل بيهم هذه الوثيقة ، فيشك في أن الأمير المعني كان يكتب ، كما يستغرب أن يصف نفسه بالأمير المكرم .

---

(١) ص ١٠٢

(٢) ص ١٠٥

فإذا كان الأمير أمياً ، فمعنى ذلك أنه أملى الرسالة على أحد كتابه ، ومن الطبيعي أن يضيف الكاتب عبارة (الأمير المكرم) . ثم من كان يشهد المفاوضات بين الأمير المعني والأمراء الأوربيين ؟ ألا يمكن أن تكون إعادته إلى الولاية نتيجة لنفوذ بعض الدول الأوربية لدى الباب العالي ، لا سيما وأنه سمح للبعثات التبشيرية بالانتشار في بلاده بعد عودته ، فضلا عن رعايته لها [1] . و كأني بالمعني امرأ قيس لبناني ، لحق بقيصر ليوطد ملكه .

ويتحدث المؤلف عن الاصلاح الذي قام به الامير المعني في العمران وتنظيم الجيش في اوائل القرن السابع عشر حين لم يكن أحد من عواهل الشرق كافة يفكر في مثل ذلك . ويستشهد على جمود السلطنة وحذرها من كل شيء أوروبي ، بالنادرة التالية التي وقعت في عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ – ١٧٧٤) ، كما يرويها الوزير التركي جودت باشا :

« لما عاد رسمي أفندي من اوربا ، وأخذ يشرح ليوسف أفندي أحد المقربين من السلطان ماشاهد فيها من العمران والتقدم ، تطرق الى ذكر المحاجر الصحية وفوائدها في دفع غوائل الأوبئة التي كانت بلاد السلطنة عرضة لها ، واقترح إقامة مثل هذه المحاجر للوقاية ، فانتفض يوسف أفندي انتفاضة النمر ، وقال له : كنت أظنك ذكياً عاقلاً تفكر في العواقب ، فإذا بي أراك خلاف ماظننت . أنت تعلم ان مصدر تجنب الأوروبيين الاقبال على بلادنا يعود الى خوفهم من هذه الامراض السارية فيها ، فاذا اقمنا المحاجر الصحية ، فلسوف يكون ذلك سبباً لتهافتهم على السلطنة المحروسة فكيف يتسنى لنا من بعد ان نسوسهم ، ونأمن بالتالي شرهم ؟ » [2] .

---

(١) ص ١١٨

(٢) ص ١١٧

فكأني بالدولة العثمانيـــة تتدرع بالحرب الجرثومية ، واذا كانت بعض الدول الحديثة تملك من الاسلحة الجرثومية مايكفي لإبادة اضعاف عدد سكان الكرة الأرضية ، فان الدولة العثمانية كانت تجد في الامراض المستوطنة وقاية ، لاسيا وأن انعدام الخدمات الصحية كان يترك المواليـــد للاصطفاء الطبيعي، فلا يعيش منهم الا من اكتسب مناعة ، ومقابل أجدادنا الذين عمروا ، مات من كان يمكن ان يصبحوا أجدادنا لولم تخترمهم يد المنون في الساعات الاولى من حياتهم .

كان الدين الإسلامي هو المقوم الوحيد للدولة العثمانية ، التي كانت تظن أن في رفضها لما لم يرد في القرآن او السنة محافظة على أصالتها . مع ان محمداً (ص) طلب من الناس عدم مغادرة المدينة التي حل بها الوباء ، وعدم دخول من هم خارجها اليها . حقاً أن محافظة الدولة على أصالتها المزعومة يجعل من العسير على الأجانب فهم الصيغة التي تقوم عليها للاستيلاء عليها لأن هذه الصيغة كانت غريبة عنهم ، ولكن الدولة تداعت امام اول حركة اصلاحية لم تنسجم مع بنيتها بقدر مايسرت للاجانب سبيل نسفها .

* *

وأخيراً ، فانني أدع للمؤرخين أمر التحقيق في هذه المعلومات التي ساقها المؤرخ العربي الاستاذ محمد جميل بيهم عن العلاقـــة بين أمراء لبنان ودولة آل عثمان .

أطلس المعجزات [1]
وشعر القضيّة

نواف أبو الهيجاء

إذا كان على الكلمة ان تلعب دورا في معارك التحرر الوطني والاجتماعي فان افضل دور يمكن ان تلعبه هذه الكلمة يأتي عن طريق « الشعر » ، لما للشعر من أهمية خاصة في مخاطبة العقول والقلوب والأحاسيس . فإلهاب المشاعر وتأجيج الروح الثورية والوطنية يمكن عن طريق عرض عمل فني صادق .. ومن أصدق من الشعر في كشف ما تكتنزه أعماق النفس البشرية من حب وحقد ، من ألم وأمل ! ؟ هكذا ، يمكننا القول ، ان الكلمة الرصاصة ، ان الكلمة السيف ، هي تلك التي تأخذ مكانها في قصيدة ، بصرف النظر عن شكل هذه القصيدة ، او وزنها ، فميزة الأدب الحق هي الصدق .

---

(١) اطلس المعجزات . مجموعة شعرية لصالح خرفي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر (١٩٦٨) .

وصالح خرفي ، شاعر من الجزائر ، بلد الثورة العربية الشعبية التي استغرقت سنوات طويلة . وإنسان يعيش في لج ثورة عارمة لا بد ان يكون مرآة واقعه الصادقة يعكس من خلالها الحدث ، وما يشعر به تجاه هذا الحدث وتفسيره ، ونظرته إلى هذا الحدث . وفي خضم الاحداث المتعاقبة السريعة يضيع التركيز على الشكل وتطفو على السطح المتوهج رغبة عارمة في قول «الكلمة» .. الكلمة الرصاصة .. الكلمة الشعلة . وهكذا يأتي المضمون ملتزماً الفنية الكاملة او فاقداً جزءاً من هذه الفنية دون ان يعي الشاعر ، او يقصد ذلك . يقول الشاعر في المقدمة « وإذا كانت الطريقة التي ارتفع بها الصوت ـ احيانا ـ لا ترضي عشاق (الفن) ، ففي صانعي الثورة ببساطتهم وعفويتهم عوض عن رضى أهل الفن » .[1] وهذا يعني ادراك الشاعر العميق المسبق ابتعاده، في بعض قصائده ، عن الاهتمام التام بالشكل الفني وطغيان روح « الموضوع ـ الثورة » على كل شيء ، وسيطرته التامة على زمام الموقف والمبادرة . « و كنت لا استنكف أن اجد نفسي غير مرة في موقف خطيب لا شاعر . ما دامت الثورة التي تلهمني تجعلني كأني على صخرة من صخور الأطلس الشامخ ، أهيب بالثائرين الأحرار . » ص (٤) .

وهذا الاقرار ليس عجيباً عند الشاعر ، فأحداث الثورة المتعاقبة السريعة أقوى من ان تعطي الشاعر فرصة التنقيب عن « الكلمة » او البحث عن «الشكل الفني » .. بل ربما لم تعطه الاحداث فرصة التقاط الأنفاس . وأي شاعر هذا الذي يسمح للأحداث ان تسبقه ليجري خلفها لاهثاً متعباً في سبيل البحث الدائم

---

(١) المصدر ذاته ـ ص ٦

عن « الفن » من أجل الصيغة الجمالية ! ؟ وأي جمالية هذه التي تفوق جمالية العفوية التامة – عفوية التأثر :

أو ما سمعت صدى الزغاريد اعتلى
من نسوة اكبادهن تداس (ص١٢).

أجل، في مثل هذه اللحظات لا يملك الشاعر ان يجري وراء الشكل، المهم ان تتدفق احاسيسه على شكل شعر، فيه غنائية، فيه اصالة، وصدق ومعاناة :

مهلاً فرنسا . ما القساوة منك إلا
ثورة لقلوبنا وحماس (ص١٤).

وفي لجة الحماس الجماهيري يطفو على السطح، او يعتلي القمة، الإنسان الأكثر حساسية .. الإنسان المرهف حسه .. الشاعر .

في قصيدته مأساة « تبسة » التي وقعت عام ١٩٥٦ تتجلى بوضوح تلك الرغبة في اطلاق أسر الاحاسيس المكبوتة في الاعماق وفك الطوق، كسره، ليسمع الجميع الصوت .. الصرخة، الصوت الذي يرسم – بريشة الحرف – ما تحسه الافئدة عندما تسمع أنات طفل، او عبرات شيخ، او صرخات بنت هتك الباغي استارها :

أنات طفل من بنيك ميتم
لا أم تمسح دمعه المدرارا
عبرات شيخ تأكل النيران أموا
لاً قضى في جمعها أعمارا
صرخات بنت من بناتك كالخريـ
ـدة هتك الباغي لها ستارا

زفرات قوم ابعدوا عـــن أرضهم

ظلما فهاموا في القــفار حيارى (ص٢٠)

إزاء كل ما يصنعه المستعمر من مجازر ، ومآس ، وما يسببه من جراء عسفه وظلمه ، لا يملك الانسان الا ان يتساءل :

مــاذا جنى الاطفال حتى تقطفو

هم مـن حدائق عمرنا ازهـــارا ؟ (ص٢١)

بيد أن ايمان الشاعر بعدالة قضيته ، ميزة شعراء المقاومة اجمعين ، بل ميزة جميع شعراء الانسانية ، هو الذي يدفعه إلى الرؤيا .. رؤيا نبي الكلمة الحق :

سيزيح ظلمــة الاسكار فجر

للجزائر يبهر الانظـــارا (ص٢٢)

وإذا كان لا بد لنا ان نقول : أهو شاعر ام خطيب ! ؟ وجب ان نبحث عن رؤاه .. فالرؤى ميزة الشعراء الحقيقين ، ولا ضرر ان وجدنا الشاعر احيانا خطيباً أكثر منه شاعراً ، ولكن المهم في هذا « الخطيب » ان يكون « خطيباً شاعراً » يدلل عن شاعريته ضوء متوهج ينبع من اعماقه فتلفظه شفتاه. لنقرأ هذه الابيات التي قالها الشاعر عام ١٩٥٦ ، ولننظر إلى الجزائر اليوم

فــلا ترقبوا منــا سلاماً

دعونــا صخرة ودعوه وعــلا

فيا نسر الجبال أدر رحـــاها

وأجـج نارهــا او تستقــلا

ففي استشهادنـــا للعز محيــا

وفي اقدامنـــا للمجد مجلى

اذا مـــا الليل طـــال ببغي باغ

فقل صبح التحرر قـــد تجلى (ص٣٠)

أليس صحيحاً أن صبح التحرر قد تجلى في الجزائر بعد ان بغى المستعمر وطغى وتجبر ، وبعد أن قدم شعبنا الثائر هناك مليون شهيد من أجـــل حرية الجزائر وعروبتها ؟

وصالح خرفي ، كعربي من الجزائر ، ظـل مرتبطاً بتراث أمته . بحضارتها ، بلغتها . ألم تحاول فرنسا طوال قرن ونصف القرن محو عروبة الجزائر ؟ فإذا ما وجدنا شاعراً كشاعرنا ينشد ويغني بلغة عربية أصيلة ،وبوعي عربي عريق ، دون أن ينسى تراثه ، دون أن ينسى اجداده واخوته من شعراء العرب ، فإن ذلك مدعاة فخر لنا :

يأخذ الشاعر القصيدة المشهورة للمتنبي عن العيد ، ويستفيد منهـــا في عرض مشاعره في المناسبة ذاتها :

عيد بـــأية حـال عدت يا عيد

بمـــا مضى أم لأمر فيك تجديـــد

مالي أراك ثقيل الظل في وطـــني

يشين وجهك في الانظـــار تحديد (ص٣٣)

وفي المجموعة تسجيل لأحاسيس الشاعر في مناسبات شتى مرت على وطنه وهو في خضم المحنة والكفاح ، كمأساة حي القصبة ، وزيارة « غي موليه » ، ورد فعل الجماهير الثائرة عليه ، كذلك تسجيل للاضراب التاريخي البطولي الذي دام اسبوعاً في شهر أيار عام ١٩٥٧ بمناسبة عرض القضية على الأمم المتحدة . ويجدر

الشاعر ، كعادة الشعراء الذين يحسون بالشيء قبل حدوثه ، يحذر الثورة من نكسة بسبب من الاعتماد على الأمم المتحدة لتحصيل الاستقلال ونيل الحرية :

قـد رفعتم بني الجزائر بنداً
فاحذروا أن يلاحق البند نكس
فعلى القوس ، حافظوا لا تكونوا
كسعياً اذ ضرجت منـه خمس ص(٥٨)

أي لا تندموا ندامة « الكسعي » المشهورة .

وفي المجموعة أيضاً قصائد الى « جميلة »، وقصائد عن « الاعياد » ، وتغن أبدي بأرضـه الأم الرؤوم التي يكافح ابناؤها من أجل الخلاص ويروون الأرض بالدماء :

ورصاصة عربية نفاذة
خرقت الى قلب الدخيل الأضلعا
ولرب اقراص فرنسية سقت
سما ، بـه قلب الجريح تقطعا ص(١٢٤)

الى أن يقول :

يا عرب ليس بآمن سوء العروبة
ان تداعى عندنا وتصدعا ص(١٢٥)

ووحدة المصير العربي هنا إيمان الشاعر القوي الذي ينم عن تفهم تام لأبعاد القضية في الشعر وشعر القضية كسلاح . وارتباط القضية الجزائرية بالمصير العربي ،لا يبعد الشاعر عن وضع القضية في دائرتها الإنسانية . ان معركة التحرر واحدة ، والعدو واحد .

يوم تمخض من ارادات الشعوب

في آسيا اليقظى وافريقيا الغضوب

في كل شبر ضرجته يد الحروب ص (١٦١)

أليس الاستعمار هو السبب في ثورات الشعوب ؟ أليس هو ظلم الاستعمار وتوق الشعوب الى الحرية .. الى عناق الشمس والهواء ؟

أما في قصيدته « اطلس المعجزات » التي سمي الديوان باسمها ، فيستعرض الشاعر معجزة ارض ووطن ، وتبرز هنا اصالته في رؤياه المتقدة الصادقة ، إذ ينهي القصيدة بقوله :

« طاف بالعرب طائف ، ثم لاحت

سحنات لكم عليها بشائر

فتنورت بارق النصر فيها

وهدتني الى اليقين مشاعر

لست أخشى على العروبة شراً

ما تبقى في جبهة الحرب ثائر » ص(٢٣٩)

وإذا كان لابد من سرد ملاحظات « نقدية » فهي بلا أدنى شك لا يمكن ان تحط من قدر الشاعر « موضوعياً » وتاريخياً . فشعراء القضية ، كما قلت ، وكما يقول شاعرنا الجزائري « يهمهم » أو يعزيهم ، مايتمتع به الثوار من عفوية . باعتبار ان الشعراء ذواتهم ثوار ومقاتلون ، بالكلمة والرصاصة .

وإذا كان لابد من الوقوف عند هذه النقطة ، نقطة الضعف « الفنية » في شعر صالح خرفي ، فلا بد لنا ، إذن ، من استعراض شامل لشعرنا العربي بعد نكسة الخامس من حزيران ، ذلك الشعر الذي جاء ، في معظمه ، يحاكي شعر

صالح خرفي في افتقاره الى الفنية الناضجة وبحثه عن « الموضوع » المشتعل في الأرض المحتلة ، حتى وصل الأمر ببعض النقاد إلى اعتبار الأدب العربي بعد حزيران أدباً انفعالياً . وفي هذا الرأي نصف الحقيقة فقط . ان الظروف الموضوعية ، التي يحياها الأديب بصورة عامة ، والشاعر بصورة خاصة ، تحتم عليه ، أحياناً ، تجاهل الاهتمام ـ التام ـ بالشكل ، وتفرض عليه الاهتمام بالمضمون . ولا يعني هذا بأية حال تبرير الفشل الفني عند كثيرين من شعراء القضية ، وإخفاق البعض منهم في الحصول على ميزة « التصديق » الجماهيري للدعاوى الملقاة على مائدة أدب القضية .

وأخيراً فان شاعرنا الجزائري صالح خرفي ، سيبرهن ، قطعاً ، عن تجاوزه كل المفوات الفنية ، لاسيما أن بلاده قد نالت استقلالها ، ولا سيما أن شعر البناء الوطني هو شعر مستقر هادىء ، ينبع من نفس صافية لا تلهث وراء الأحداث ، او لا تحاول ان تلهث وراء الأحداث ، فتكون بذلك قوة فاعلة في الأحداث لا قوة منفعلة .

استقبال عضو في مجمع دمشق :

عقد مجمع اللغة العربية بدمشق ، في نيسان (أبريل) الماضي ، جلسة لاستقبال العضو المنتخب الجديد الأستاذ عبـد الهادي هاشم خلفاً للمرحوم الأستاذ عز الدين التنوخي . والأستاذ هاشم متخصص في اللغات القديمة، ومن الباحثين المعروفين في تحقيق المخطوطات العربية . وقد صادف دخوله المجمع الاحتفال بالذكرى الخمسين لتأسيسه باسم (المجمع العلمي العربي) ، وكان أول مجمع في البلاد العربية . وسيجري قريباً انتخاب عضوين جديدين خلفاً للمرحومين الأمير مصطفى الشهابي والدكتور رشدي خاطر .

معرض الكتاب العربي في بيروت :

يقيم النادي الثقافي العربي في لبنان ، معرض الكتاب العربي الخامس عشر في بيروت من ٢٤ — ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) القادم .

جائزة اللوتس :

نظم المكتب الدائم للكتاب الأفريقيين الآسيويين مسابقـة في الشعر والمسرح والرواية ، وخصص جائزة اللوتس للأدب الأفريقي الآسيوي .

مهرجان الفنون المسرحية :

يقام مهرجان دمشق الأول للفنون المسرحية خـلال شهر أيار (مايو) الحالي ، وتشترك فيه فرق مسرحية من ألمانيا الديمقراطية وبلغاريا والمتحدة والكويت والأردن ولبنان وسورية .

مؤتمر الأدباء العرب السابع :

اختتم في نيسان (أبريل) الماضي ، مؤتمر الأدباء العرب السابع في بغـداد ، وستنشر « المعرفة » في العدد القادم أهم الأبحاث التي قدمت في المؤتمر . فقد تحـدث الأستاذ أنطون مقدسي عن (الأدب العربي والتراث) ، والسيد حنا مينه عن (دور الأديب في بناء المجتمع العصري) ، والسيدة قمر كيلاني عن (أدب ما بعد حزيران) ، وطرح السيد حيدر حيدر السؤالين التاليين : هل للأديب العربي دور تاريخي فاعل في هذا الوطن الممزق المحتل ؟ إلى أي مدى يستطيع هذا الأديب أن يؤثر ، وكيف ؟

أما مهرجان الشعر فقد بدأ في بغداد وانتهى في البصرة .

اعلان هام

إلى السادة المشتركين في المجلة

قررت إدارة مجلة « المعرفة » أن توزع هديتها على المشتركين في عام ١٩٦٩ اعتباراً من شهر آذار (مارس) ولغاية شهر حزيران (يونيو) . والهدية هي كتاب من منشورات وزارة الثقافة في القطر العربي السوري .

وتضع المجلة أمام القراء القائمة التالية ، المؤلفة من عشرة كتب ، ليختار المشترك منها كتابا نقوم بارساله إليه مع العدد القادم . ونرجو أن يتفضل المشترك باعلامنا اختياره بأسرع وقت ممكن ، وأن يبين لنا العنوان الذي يرغب في أن ترسل إليه الكتاب الهدية :

ميمونة : رواية للكاتب السنغالي عبد الله ساجي ترجمة بهجة قنصة ونعيم قداح

الأرض والسماء : بقلم العالم السوفييتي فولكوف ترجمة الدكتور أدهم السمان

بيت الانسانية الكبير : بقلم جماعة من العلماء السوفييت ترجمة عماد حاتم

في انتظار غودوت : مسرحية للكاتب الانكليزي صموئيل بيكيت ترجمة حالة فرح

أنشودة لينينغراد : مسرحية للكاتب السوفييتي إلكسي أربوزوف ترجمة محمد جديد

فلسطين مشكلة ماثلة : نادي كتاب الساعة في الهند ترجمة محمد جديد

في سبيل الثورة العربية : بقلم نخبة من كبار الكتاب الغربيين ترجمة حنين حاصباني وأنطون حمصي

من دفتر الصمت : للشاعر المصري محمد عفيفي مطر

الفن والقومية : بقلم الدكتور عفيف بهنسي

القومية العربية في القرن التاسع عشر : بقلم الدكتور توفيق برو

إن هذه الهدية دعوة للقراء الذين لم يشتركوا بعد في المجلة ، إلى أن يبادروا لتسجيل اشتراكهم فيها وإرسال القيمة حوالة بريدية أو شيكا على أحد المصارف المعتمدة في دمشق باسم محاسب مجلة المعرفة ؛ وسيتلقون هديتهم وفق اختيارهم مع أول عدد يصلهم .